تفسير المعوذتين

قل أعوذ برب الفلق

تأليف
ابن القيم الجوزية
تحقيق
سيد ابراهيم

دار الحديث

تفسير المعوذتين

تأليف

ابن القيم الجوزيه

تحقيق

سيد ابراهيم

دار الحديث

طبع . نشر . توزيع

كلمـــة المحـــقق

إن الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . « **أما بعد** »

هذه الرسالة التى أقدمها للقراء هى « تفسير المعوذتين » وهى رسالة قيمة لابن القيم . مأخوذة من كتابه (بدائع الفوائد) فى آخر الجزء الثانى وهى خير دليل على سعة علمه وكثرة اطلاعه وتبحره فى علم التفسير وحيث أن الرسالة طبعت منفردة قبل ذلك وقام بنشرها الأستاذ : قصى محب الدين » .

وقمت بقراءتها فوجدت بها أخطاء فى تخريج الآيات القرآنية . وإننى أظن أن هذه الأخطاء لم تكن من الناشر فهى إما من الناسخ سقطت منه الأرقام سهواً أو من المطبعة التى قامت بطبع النسخة فقمت بضبطها وكذلك خالية من تخريج الأحاديث النبوية فاستعنت بالله فى العمل فى تلك الرسالة فكان الآتى : -

١ - ترجمة مختصرة للمؤلف .
٢ - تخريج الآيات القرآنية وكتابة اسم السورة ورقم الآية .
٣ - تخريج الأحاديث النبوية .
٤ - ترجمة مختصرة لبعض الفرق التى تخص الرسالة وذُكرت فيها .

٥ - إضافة بعض الفوائد المتعلقة بالرسالة وبعض الكلمات اللغوية ومعناها .

٦ - وضع فهارس للرسالة فى نهايتها كالآتى :

أ - فهرس الآيات القرآنية مرتبة على الحروف .

ب - فهرس الأحاديث مرتبة على الحروف .

ج - فهرس المراجع والمصادر .

د - فهرس الموضوعات (وهو من الرسالة السابقة)

وأخيراً أسأل الله العظيم أن يغفر لى ذنوبى ويتجاوز عن سيئاتى حيث أن « **كل ابن آدم خطاء** » كما ورد فى الحديث الصحيح[1] وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم . كما لا أنسى أن أقدم الشكر للأخ الفاضل / عصام الدين الصبابطى صاحب كتاب « جامع الأحاديث القدسية » حيث جعل مكتبته القيمة تحت تصرفى من حيث المراجع والمصادر .

« ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم »

« الراجى عفو ربه »

أبو حفص

سيد بن إبراهيم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى « مسنده » (٣ / ١٩٨) وصححه الألبانى فى « صحيح الجامع » من حديث « أنس » رقم (٤٣٩١) ....

ترجمــة المؤلــف

نَســبهُ : -

هو الإمام المحقق الحافظ الأصولى الفقيه . النحوى . صاحب الذهن الوقاد والعلم السيال . شمس الدين . أبوعبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعى الدمشقى المشهور بابن قيم الجوزية .

مَوْلِـدُهُ : -

ولد فى بيت علم وفضل فى السابع من صفر سنة إحدى وتسعين وستمائة فى قرية زرع من قرى حوراث، تبعد عن مدينة دمشق خمسة وخمسين ميلاً جنوب شرقيها .

علمـه وشيوخـه : -

تحول إلى دمشق وتتلمذ لطائفة من علمائها فأخذ عن أبيه علم الفرائض فإنه كان مبرزاً فيه . سمع الحديث من الشهاب النابلسى وغيره . وأخذ العربية عن ابن أبى الفتح البعلِّى . وتلقى الأصول والفقه على صفى الدين الهندى وشيخ الإسلام ابن تيمية . والشيخ إسماعيل بن محمد الحرانى .

وقد لازم شيخ الإسلام ابن تيمية ملازمة تامة منذ عودته من مصر سنة ٧١٢ إلى وفاته سنة ٧٢٨ هـ وكان يأخذ بأكثر اجتهاداته وينتصر لها ويتوسع فى التدليل على صحتها .

تلامــذته : -

وقد تلقى عن المؤلف رحمه الله كثير من العلماء المشهود لهم بالفضل فى حياة شيخه « ابن تيمية » وإلى أن مات وانتفعوا به أيما انتفاع « منهم » :

١ - الإمام الحافظ زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادى .

٢ - الحافظ عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير .

٣ - الإمام الحافظ عمدة المحدثين شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن عبد الهادى .

٤ - شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد القادر بن محيى الدين عثمان ابن عبد الرحمن النابلسى الحنبلى .

٥ - ولداه إبراهيم وشرف الدين عبد الله .

أقوال العلماء فيه مختصراً : -

قال الحافظ ابن رجب : كان عارفاً بالتفسير لايجارى فيه وبأصول الدين وإليه فيهما المنتهى .

قال الذهبى : عنى بالحديث ومتونه وبعض رجاله.

قال ابن كثير : برع فى علوم كثيرة متعددة لاسيما علم التفسير .

قال القاضى برهان الدين الزرعى : ماتحت أديم السماء أوسع منه علماً .

قال الحافظ بن حجر : كان جرىء الجنان . واسع العلم . عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف .

بعض مؤلفاته : -

له تصانيف كثيرة بلغت نيفاً وستين كتاباً فى مختلف العلوم منها : إعلام الموقعين - إغاثة اللهفان - تهذيب سنن أبى داود - زاد المعاد - الصواعق المرسلة - اجتماع الجيوش الإسلامية . وغيرها .

وفاتـه : -

توفى وقت عشاء الآخرة ليلة الخميس فى الثالث والعشرين من رجب سنة ٧٥١ هـ رحمه الله وأسكنه بحبوحة جناته .

سورة الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعوذُ بِرَبِّ الفَلَق * من شرِّ ما خَلَقَ * ومن شَرِّ غَاسِقٍ إذا وَقَبَ * ومن شرِّ النفَّاثاتِ فى العُقَدِ * ومن شَرِّ حاسدٍ إذا حَسَدَ ﴾[1].

روى مسلم فى صحيحه من حديث قيس بن حازم عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم « **ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط : أعوذ برب الفلق ، أعوذ برب الناس** »[2].

وفى لفظ آخر من رواية محمد بن إبراهيم التيمى ، عن عقبة : أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال له : « **ألا أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوذون ؟** » قلت : بلى . قال : ﴿ **قل أعوذ برب الفلق** ﴾ ، و ﴿ **قل أعوذ برب الناس** ﴾[3]

---

(١) الفلق (١ – ٥)

(٢) مسلم (٨١٤) وأخرجه أبوداود (١٤٦٢) والترمذى (٢٩٠٤) والنسائى (٢ / ١٥٨) وأحمد فى مسنده (٤ – ١٥١) والدارمى (٢ / ٤٦٢) ولكن بلفظ بدأه بقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : لقد أنزل على آيات لم أر أو لم ير ثم ساق الحديث .

(٣) رواه أحمد فى مسنده (جـ ٤ / ١٤٤) ، (جـ ٣ / ٤١٧) من طريق محمد بن إبراهيم التيمى عن ابن عابس الجهنى .
فائدة مهمة : –
وفى المسند للإمام أحمد (جـ ٤ / ١٤٤) أن ابن عابس الجهنى هو عقبة بن عامر الجهنى .

وفى الترمذى : حدثنا قتيبة أخبرنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن على ابن رباح عن عقبة بن عامر قال : « أمرنى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن أقرأ بالمعوذتين فى دُبُر كل صلاة »(٤) وقال هذا حديث غريب . وفى الترمذى والنسائى وسنن أبى داود عن عبد الله بن حبيب قال : « خرجنا فى ليلة مطر وظلمة نطلب النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليصلى لنا فأدركناه فقال : « **قل** » . فلم أقل شيئاً ، ثم قال : « **قل** » . فلم أقل شيئاً ، ثم قال : قلت : يارسول الله ، ماأقول ؟ ، قال :

« **قل : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ، والمعوذتين حين تمسى وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شىء** » قال الترمذى حديث حسن صحيح(٥) .

وفى الترمذى أيضا من حديث الجريرى عن أبى هريرة عن أبى سعيد قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يتعوذ من الجان ، وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان ، فلما نزلتا أخذهما وترك ماسواهما » قال : وفى الباب عن

---

(٤) رواه الترمذى (٣٠٦٧) باب (ماجاء فى المعوذتين) وقال حديث غريب

قلـــت :

وفيه ابن لهيعة . قال عنه يحيى القطان وجماعة ضعيف . وقال ابن معين ليس بذاك القوى . قال الذهبى : يروى حديثه فى المتابعات ولا يحتج به قال الألبانى : سىء الحفظ إذا كان من رواية غير العبادلة عنه وها أنت ترى الذى يروى عنه قتيبة إذا فالحديث إسناده ضعيف .

ولكـــن :

أخرج النسائى (١ / ١٩٦) وابن خزيمة فى صحيحه (٧٥٥)

والألبانى فى الجامع الصحيح (١١٧٠) وفى الصحيحة أيضا رقم (٦٤٥ ، ١٥١٤)

من حديث عقبة بن عامر (اقرءوا المعوذات فى دبر كل صلاة)

(٥) أخرجه الترمذى (٣٥٧٥) فى (الدعوات) وقال هذا حديث غريب وأحمد فى مسنده (٥ / ٣١٢) وأبو داود (٥٠٨٢) والنسائى فى (الاستعاذة) (١ / ٨) وأول الحديث (أصابنا طش وظلمة فانتظرنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم) ثم ساق الحديث والألبانى فى صحيح الجامع (٤٢٨٢) وقال : صحيح.

أنس : وهذا حديث غريب[٦]

وفى الصحيحين عن عائشة : « أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان إذا آوى إلى فراشه نفث فى كفيه بقُل هو الله أحد والمعوذتين جميعاً ، ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يداه من جسده . قالت عائشة : فلما اشتكى كان يأمرنى أن أفعل ذلك به »[٧].

قلت : هكذا رواه يونس عن الزهرى عن عروة عن عائشة . ذكره البخارى

ورواه مالك عن الزهرى عن عروة عنها : « أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث ، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عليه بيده رجاء بركتها »[٨] كذلك قال معمر عن الزهرى عن عروة عنها : « أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان ينفث على نفسه فى مرضه الذى قُبض فيه بالمعوذات ، فلما ثقل كنت أنا أنفث عليه بهن وأمسح

---

(٦) رواه الترمذى (٢٠٥٩) والنسائى (٨ / ٢٧١) وابن ماجه (٣٥١١) وحسنه الترمذى ، والألبانى فى (رياض الصالحين) بتحقيقه (١٠٢١) وقال : حديث صحيح من حديث أبو سعيد الخدرى .

(٧) رواه البخارى فى كتاب (فضائل القرآن) باب (فضل المعوذات) رقم (٥٠١٧) جـ ٨ وكتاب (الطب) باب (النفث) فى الرقية رقم (٥٧٤٨) جـ١٠ وكتاب (الدعوات) باب (التعوذ والقراءة فى المنام) رقم (٦٣١٩) جـ١١ [انظر الفتح] ومسلم (٢١٩٢) وأبو داود فى (الأدب) باب (مايقول عند النوم) برقم (٣٩٠٢ ، ٥٠٥٦) والترمذى فى (الدعوات) رقم (٣٣٩٩) وابن ماجه فى (الدعوات) باب (مايدعو إذا آوى إلى فراشه) رقم (٣٨٧٥) قال أهل اللغة « النفث » نفخ لطيف بلا ريق .

(٨) رواه البخارى فى كتاب (المغازى) باب (مرض النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ووفاته) رقم (٤٤٣٩) جـ٧ وكتاب (فضائل القرآن) باب (فضل المعوذات) رقم (٥٠١٦) جـ٨ (انظر الفتح) ومسلم فى كتاب (السلام) باب (رقية المريض بالمعوذات والنفث) حديث ٥١ ومالك فى الموطأ فى كتاب (العين) باب (التعوذ والرقية فى المرض) « ٢ / ٩٤٣ » .

بيد نفسه لبركتها ، فسألت ابن شهاب : كيف كان ينفث ؟ قال : ينفث على يديه ثم يمسح بهما وجهه » ذكره البخارى أيضاً[٩] .

وهذا هو الصواب أن عائشة كانت تفعل ذلك ، والنبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يأمرها ولم يمنعها من ذلك ، وأما أن يكون استرقى وطلب منها أن ترقيه فلا ولعل بعض الرواة رواه بالمعنى ، فظن أنها لما فعلت ذلك وأقرها النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه كان يأمرها ، وفرق بين الأمرين ولا يلزم من كون النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم قد أقرها على رقيته أن يكون هو مسترقيا فليس أحدهما بمعنى الآخر ، ولعل الذى كان يأمرها به ، إنما هو المسح على نفسه بيده ، فيكون هو الراقى لنفسه ، ويده لما ضعفت عن التنقل على سائر بدنه أمرها أن تنقلها على بدنه ، ويكون هذا غير قراءتها هى عليه ومسحها على بدنه ، فكانت تفعل هذا وهذا ، والذى أمرها به إنما هو نقل يده لا رقيته ، والله أعلم ،

والمقصود بالكلام على هاتين السورتين ، وبيان عظيم منفعتهما ، وشدة الحاجة بل الضرورة إليهما ، وأنه لا يستغنى عنهما أحد قط ، وأن لهما تأثيرا خاصا فى دفع السحر والعين وسائر الشرور ، وأن حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السورتين أعظم من حاجته إلى النفس والطعام والشراب واللباس ، فنقول والله المستعان :

قد اشتملت السورتان على ثلاثة أصول وهى أصول الاستعاذة :

أحدها : نفس الاستعاذة .

والثانية : المستعاذ به .

والثالثة : المستعاذ منه .

فبمعرفة ذلك تعرف شدة الحاجة والضرورة إلى هاتين السورتين ، فلنعقد لهما ثلاثة فصول : الفصل الأول : فى الاستعاذة ، والثانى : فى المستعاذ به ، والثالث : فى المستعاذ منه .

---

(٩) رواه البخارى فى كتاب (الطب) باب (الرقى بالقرآن والمعوذات) رقم (٥٧٣٥) جـ١٠ وباب (المرأة ترقى الرجل) رقم (٥٧٥١) ج١٠ (انظر الفتح)

الفصـــل الأول

الكلام على الاستعاذة وبيان معناها

اعلم أن لفظ (عاذ) وما تصرف منها تدل على التحرز والتحصن والنجاة . وحقيقة معناها : الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه . ولهذا يسمى المستعاذ به : معاذا ، كما يسمى : ملجأ ووزراً .

وفى الحديث « أن ابنة الجَوْن لما أدخلت على النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم فوضع يده عليها قالت : أعوذ بالله منك . فقال لها : « **لقد عذت بمعاذ ، الحقى بأهلك** »[١٠] .

فمعنى (أعوذ) : ألتجىء وأعتصم وأتحرز ، وفى أصله قولان : أحدهما أنه مأخوذ من الستر ، والثانى : أنه مأخوذ من لزوم المجاورة .

فأما من قال إنه من الستر ، فقال : العرب تقول للبيت الذى فى أصل الشجرة التى قد استتربها (عُوَّذ) بضم العين وتشديد الواو وفتحها ، فكأنه لما عاذ بالشجرة واستتر بأصلها وظلها : سموه عوذا . فكذلك العائذ قد استتر من عدوه بمن استعاذ به منه واستجن به منه .

---

(١٠) رواه ابن ماجه فى كتاب (الطلاق) باب (متعة الطلاق) برقم ٢٠٣٧ جـ١ بإسناد ضعفه البوصيرى فى الزوائد وقال فى إسناده عبيد بن القاسم قال عنه ابن معين كان كذاباً خبيثا (انظر ابن ماجه) .
والإمام أحمد فى مسنده (٣ / ٤٩٨) .
ولكن : رواه البخارى فى صحيحه فى كتاب (الطلاق) باب (من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق) برقمى (٥٢٥٤ ، ٥٢٥٥) فى الأول بلفظ (**لقد عذت بعظيم الحقى بأهلك**) وفى الثانى « **لقد عذت بمعاذ ثم خرج علينا فقال : ياأبا أسيد اكسها رازقيين وألحقها بأهلها** » (انظر الفتح جـ ٩)

ومن قال : هو لزوم المجاورة ، قال العرب تقول للحم إذا لصق بالعظم فلم يتخلص منه (عوذ) لأنه اعتصم به واستمسك به ، فكذلك العائذ قد استمسك بالمستعاذ به واعتصم به ولزمه .

والقولان حق ، والاستعاذة تنتظمهما معا ، فإن المستعيذ مستتر بمعاذه ، مستمسك به ، معتصم به ، قد استمسك قلبه به ولزمه كما يلزم الولد أباه إذا أشهر عليه عدوه سيفا وقصده به فهرب منه ، فعرض له أبوه فى طريق هربه فإنه يلقى نفسه عليه ويستمسك به أعظم استمساك ، فكذلك العائذ قد هرب من عدوه الذى يبغى هلاكه إلى ربه ومالكه وفر إليه وألقى نفسه إليه واعتصم به والتجأ إليه .

وبعد ، فمعنى الاستعاذة القائم بقلب المؤمن وراء هذه العبارات وإنما هى تمثيل وإشارة وتفهيم ، وإلا فما يقوم بالقلب حينئذ من الالتجاء والاعتصام والانطراح بين يدى الرب والافتقار إليه ، والتذلل بين يديه أمر لا تحيط به العبارة .

ونظير هذا . التعبير عن معنى محبته وخشيته ، وإجلاله ومهابته فإن العبارة تقصر عن وصف ذلك ، ولا تدرك إلا بالاتصاف بذلك ، لا بمجرد الوصف والخبر ، كما أنك إذا وصفت لذة الوقاع لعنين لم تخلق له شهوة أصلا ، فمهما قربتها وشبهتها بما عساك أن تشبهها به ، لم تحصل حقيقة معرفتها فى قلبه ، فإذا وصفتها لمن خلقت الشهوة فيه وركبت فيه عرفها بالوجود والذوق .

وأصل هذا الفعل : (أعوذ) بتسكين العين وضم الواو ، ثم أعلَّ بنقل حركة الواو إلى العين وتسكين الواو ، فقال : أعوذ على أصل هذا الباب ، ثم طردوا إعلاله فقالوا فى اسم الفاعل : عائذ ، وأصله : عاوذ ، فوقعت الواو بعد ألف فاعل فقلبوها همزة ، كما قالوا : قائم وخائف . وقالوا فى المصدر : عياذاً بالله ، وأصله : عواذاً كلواذ ، فقلبوا الواو ياء لكسرة ماقبلها ، ولم تحصنها حركتها لأنها قد ضعفت بإعلالها فى الفعل وقالوا : مستعيذ . وأصله : مستعوذ كمستخرج ، فنقلوا كسرة الواو إلى العين فكسر ماقبل الواو فقلبت ياء على أصل الباب .

فإن قلت : فلم دخلت السين والتاء فى الأمر من هذا الفعل ، كقوله : ﴿ **فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم** ﴾[11] ، ولم تدخل فى الماضى والمضارع ، بل الأكثر أن يقال أعوذ بالله وتعوذت ، دون أستعيذ واستعذت .

قلت : السين والتاء دالة على الطلب ، فقوله : أستعيذ بالله أى أطلب العياذ به ، كما إذا قلت : أستخير الله أى أطلب خيرته ، وأستغفره : أى أطلب مغفرته ، وأستقيله . أى أطلب إقالته : فدخلت فى الفعل إيذانا بطلب هذا المعنى من المعاذ فإذا قال المأمور : أعوذ بالله ، فقد امتثل ما طلب منه لأنه طلب منه الالتجاء والاعتصام ، وفرق بين نفس الالتجاء والاعتصام ، وبين طلب ذلك . فلما كان المستعيذ هاربا ملتجئاً معتصما بالله أتى بالفعل الدال على ذلك دون الفعل الدال على طلب ذلك فتأمله .

وهذا بخلاف ما إذا قيل : أستغفر الله . فقال : استغفر الله ، فإنه طلب منه أن يطلب المغفرة من الله ، فإذا قال : أستغفر الله ، كان ممتثلا ، لأن المعنى : أطلب من الله أن يغفر لى .

وحيث أراد هذا المعنى فى الاستعاذة فلا ضير أن يأتى بالسين والتاء فيقول . أستعيذ بالله ، أى أطلب منه أن يعيذنى ، ولكن هذا معنى غير نفس الاعتصام والالتجاء والهرب إليه .

فالأول : مخبر عن حاله وعياذه بربه ، وخبره يتضمن سؤاله وطلبه أن يعيذه .

والثانى : طلب سائل من ربه أن يعيذه ، كأنه يقول : أطلب منك أن تعيذنى .

فحال الأول أكمل . ولهذا جاء عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم فى امتثال هذا الأمر « **أعوذ بالله من الشيطان الرجيم** »[12] و « **أعوذ بكلمات الله**

---

(١١) النحل (٩٨)

(١٢) أخرج البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن سليمان بن صرد (رضى الله عنه) قال : كنت جالساً مع النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ورجلان يستبان وأحدهما=

التامات »[١٣] و « **أعوذ بعزة الله وقدرته** »[١٤] دون : أستعيذ ، بل الذى علمه الله إياه أن يقول : ﴿ **أعوذ برب الفلق – أعوذ برب الناس** ﴾ ، دون أستعيذ ، فتأمل هذه الحكمة البديعة .

فإن قلت : فكيف جاء امتثال هذا الأمر بلفظ الأمر والمأمور به فقال ﴿ **قل أعوذ برب الفلق** ﴾[١٥] و ﴿ **قل أعوذ برب الناس** ﴾[١٦] ومعلوم أنه إذا قيل : قل الحمد لله ، وقل سبحان الله ، فإن امتثاله أن يقول : الحمد الله وسبحان الله ، ولا يقول : قل سبحان الله .

= قد احمر وجهه وانتفخت أوداجه فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم « **إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه مايجد لوقال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد** » فقالوا له : إن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال تعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

رواه البخارى فى كتاب (الأدب) باب (الحذر من الغضب) رقم ٦١١٥ جـ١٠ وليس فيه اللفظة الأخيرة (تعوذ بالله .....) انظر الفتح .

ورواه مسلم (٢٦١٠) كتاب(البر والصلة والآداب) باب (فضل من يملك نفسه عند الغضب ويأتى شىء يذهب الغضب) انظر « اللؤلؤ والمرجان » حديث رقم (١٦٧٧) .

(١٣) روى مسلم فى صحيحه عن خولة بنت حكيم رضى الله عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول « **من نزل منزلاً ثم قال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شىء حتى يرتحل من منزله ذلك** » انظر صحيح مسلم (٢٧٠٨) ، رياض الصالحين بتحقيق الألبانى رقم (٩٨٩) .

(١٤) رواه مسلم فى كتاب (السلام) باب (استحباب وضع يده على موضع الألم) برقم (٢٢٠٢) وباقى لفظة (من شر ما أجد وأحاذر) وأبو داود فى كتاب (الطب) باب (كيف الرقى) والترمذى فى كتاب (الطب) باب (حدثنا إسحق بن موسى) وقال حديث حسن صحيح .
والإمام أحمد فى مسنده (٤ – ٢١٧) .

(١٥) الفلق (١) .

(١٦) الناس (١) .

قلت : هذا هو السؤال الذى أورده أبى بن كعب على النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم بعينه وأجابه عنه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال البخارى فى صحيحه : حدثنا قتيبة حدثنا سفيان عن عاصم وعبدة عن زر بن حبيش قال « سألت أبى بن كعب عن المعوذتين ، فقال : سألت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال :« **قيل لى ، فقلت** »فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم[١٧] ثم قال حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان حدثنا عبدة بن أبى لبابة عن زر بن حبيش . وحدثنا عاصم عن زر قال « سألت أبيّ بن كعب ، قلت : أبا المنذر ، إن أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا ، فقال : إنى سألت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال : « **قيل لى ، فقلت قل** » فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم[١٨].

قلت : مفعول القول محذوف وتقديره : قيل لى قل ، أو قيل لى هذا اللفظ فقلت كما قيل لى .

وتحت هذا من السر أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليس له فى القرآن إلا إبلاغه ، لا أنه هو أنشأ من قبل نفسه ، بل هو المبلغ له عن الله . وقد قال الله له ﴿ **قل أعوذ برب الفلق** ﴾ فكان مقتضى البلاغ التام أن يقول ﴿ **قل أعوذ برب الفلق** ﴾ كما قال الله . وهذا هو المعنى الذى أشار النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم إليه بقوله « **قيل لى ، فقلت** » أى إنى لست مبتدئاً بل أنا مبلغ ، أقول كما يقال لى ، وأبلغ كلام ربى كما أنزله إلىّ .

فصلوات الله وسلامه عليه ، لقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة وقال كما قيل له

---

(١٧) رواه البخارى فى كتاب (التفسير) باب (قوله الله الصمد) برقم (٤٩٧٦) جـ٨ (انظر الفتح) .

(١٨) المصدر السابق برقم (٤٩٧٧) جـ٨

فكفانا من المعتزلة[19] والجهمية[20] وإخوانهم ممن يقول : هذا القرآن العربى ، وهذا النظم كلامه ابتدأ هو به . ففى هذا الحديث أبين الرد لهذا القول ، وأنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم بلغ القول الذى أمر بتبليغه على وجهه ولفظه ، حتى إنه لما قيل له « **قل** » قال هو : « **قل** » لأنه مبلغ محض ، وما على الرسول إلا البلاغ .

الفصــل الثانــى

فى المستعاذ به

وهو الله وحده ، رب الفلق ، ورب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، الذى لاينبغى الاستعاذة إلا به ، ولا يستعاذ بأحد من خلقه ، بل هو الذى يعيذ المستعيذين ، ويعصمهم ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره .

وقد أخبرنا تعالى فى كتابه عمن استعاذ بخلقه ، أن استعاذته زادته طغياناً ورهقاً فقال حكاية عن مؤمنى الجن : ﴿ **وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا** ﴾[21] جاء فى التفسير ، أنه « كان الرجل من العرب فى الجاهلية إذا سافر فأمسى فى أرض قفر قال : أعوذ بسيد هذا الوادى من شر

---

(١٩) **المعتزلة** : –

أتباع عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء . اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن البصرى رحمه الله فى أوائل المائة الثانية وكانوا يجلسون معتزلين فيقول قتادة وغيره أولئك معتزلة . انظر شرح الطحاوية صـ٥٨٨

(٢٠) **الجهمية** : –

أتباع جهم بن صفوان المبتدع الضال رأس الجهمية الذى هلك فى زمان صغار التابعين وأنه أخذ آراءه عن الجعد بن درهم من نفى الصفات والقول بخلق القرآن . انظر ميزان الاعتدال (١ / ٤٢٦) .

(٢١) سورة (الجن) الآية : (٦) .

سفهاء قومه ، فيبيت فى أمن وجوار منهم حتى يصبح »[٢٢]، أى فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بسادتهم رهقاً ، أى طغياناً وإثما وشرا ، يقولون : سدنا الإنس والجن . و « الرهق » فى كلام العرب : الإثم وغشيان المحارم ، فزادوهم بهذه الاستعاذة غشيانا لما كان محظوراً من الكبر والتعاظم ، فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن .

واحتج أهل السنة على المعتزلة فى أن كلمات الله غير مخلوقة : بأن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم استعاذ بقوله « **أعوذ بكلمات الله التامات** »[٢٢]وهو صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يستعيذ بمخلوق أبدا .

ونظير ذلك قوله : « **أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك** »[٢٣]فدل على أن رضاه وعفوه من صفاته ، وأنه غير مخلوق ، وكذلك قوله : « **أعوذ بعزة الله وقدرته** »[٢٤]وقوله : « **أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات** »[٢٥]وما استعاذ به النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم غير مخلوق ، فإنه لا يستعيذ إلا بالله ، أو بصفة من صفاته .

---

(٢٢) سبق تخريجه برقم (١٣) .

(٢٣) رواه مسلم فى كتاب (الصلاة) باب (ما يقال فى الركوع والسجود) رقم ٢٢٢ وأحمد فى مسنده (٦ / ٥٨) وابن ماجه فى كتاب (الدعوات) باب (ماتعوذ منه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم) جـ٢ رقم (٣٨٤١) ومالك فى الموطأ فى كتاب (القرآن) باب (ما جاء فى الدعاء) . جـ١ رقم ٢١٤ .

(٢٤) رواه مسلم فى كتاب (السلام) باب (استحباب وضع يده على موضع الألم) رقم (٢٢٠٢) ولفظه (**أعوذ بالله وقدرته**) وساق الحديث وكذلك أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤ - ٢١٧) وأبو داود (٣٨٩١) جـ٤ والترمذى (٢٠٨٠) جـ٤ وقال أبو عيسى : حديث حسن صحيح وقد تقدم تخريجه فى رقم (١٤) .

(٢٥) **قلت** : وهذا هو بعض الدعاء المشهور الذى قاله بعد رجوعه من الطائف وأوذى صلى الله عليه وعلى آله وسلم أورده الهيثمى فى (مجمع الزوائد) وقال : رواه الطبرانى وفيه ابن إسحق مدلس ثقة ، وبقية رجاله ثقات (٦ / ٣٥) وقال الألبانى =

وجاءت الاستعاذة فى هاتين السورتين باسم الرب ، والملك ، والإله ، وجاءت الربوبية فيها مضافة إلى الفلق وإلى الناس ، ولابد من يكون ما وصف به نفسه فى هاتين السورتين يناسب الاستعاذة المطلوبة ويقتضى دفع الشر المستعاذ منه أعظم مناسبة وأبينها .

وقد قررنا فى مواضع متعددة أن الله سبحانه يدعى بأسمائه الحسنى ، فيُسئل لكل مطلوب باسم يناسبه ويقتضيه . وقد قال النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم فى هاتين السورتين : « **أنه ما تعوذ المتعوذون بمثلهما** »[٢٦] فلا بد أن يكون الاسم المستعاذ به مقتضياً للمطلوب ، وهو دفع الشر المستعاذ منه أو رفعه . وإنما يتقرر هذا بالكلام فى الفصل الثالث ، وهو الشيء المستعاذ منه ، فتتبين المناسبة المذكورة ، فنقول :

الفصـــل الثـــالث

فى أنواع الشرور المستعاذ منها فى هاتين السورتين

الشر الذى يصيب العبد لا يخلو من قسمين :

إما ذنوب وقعت منه يعاقب عليها ، فيكون وقوع ذلك بفعله وقصده وسعيه ، ويكون هذا الشر هو الذنوب وموجباتها ، وهو أعظم الشرين وأدومهما وأشدهما اتصالا بصاحبه .

وإما شر واقع به من غيره ، وذلك الغير إما مكلف أو غير مكلف ، والمكلف إما نظيره وهو الإنسان ، أو ليس نظيره وهو الجنى ، وغير المكلف : مثل الهوام وذوات الحمة وغيرها .

= فى كتاب (ضعيف الجامع) رقم (١٢٨٠) : « ضعيف » .

(٢٦) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٧ / ١٤٩) بلفظ : « **فما تعوذ العباد بمثلهن** » وقال رواه البزار ورجاله رجال الصحيح والنسائى (جـ٨/٢٥٠) كتاب (الاستعاذة)

فتضمنت هاتان السورتان الاستعاذة من هذه الشرور كلها بأوجز لفظ وأجمعه وأدله على المراد وأعمه استعاذة ، بحيث لم يبق شر من الشرور إلا دخل تحت الشر المستعاذ منه فيهما . فإن سورة الفلق تضمنت الاستعاذة من أمور أربعة :

أحدها : شر المخلوقات التى لها شر عموما .

الثانى : شر الغاسق إذا وَقب .

الثالث : شر النفاسات فى العُقد .

الرابع : شر الحاسد إذا حَسد .

فنتكلم على هذه الشرور الأربعة ومواقعها واتصالها بالعبد ، والتحرز منها قبل وقوعها ، وبماذا تدفع بعد وقوعها .

وقبل الكلام فى ذلك لابد من بيان الشر : ماهو ؟ وما حقيقته ؟

فنقول : الشر يقال على شيئين : على الألم ، وعلى ما يفضى إليه . وليس له مسمى سوى ذلك .

فالشرور هى الآلام وأسبابها ، فالمعاصى والكفر والشرك وأنواع الظلم : هى شرور ، وإن كان لصاحبها فيها نوع غرض ولذة ، لكنها شرور لأنها أسباب للآلام ، ومفضية إليها ، كإفضاء سائر الأسباب إلى مسبباتها . فترتب الألم عليها كترتب الموت على تناول السموم القاتلة ، وعلى الذبح والإحراق بالنار والخنق بالحبل وغير ذلك من الأسباب التى تكون مفضية إلى مسبباتها ، ولا بد مالم يمنع السببية مانع أو يعارض السبب ماهو أقوى منه وأشد اقتضاء ، كما يعارض سبب المعاصي قوة الإيمان وعظم الحسنات الماحية وكثرتها ، فيزيد فى كميتها أو كيفيتها على أسباب العذاب فيدفع الأقوى الأضعف . وهذا شأن جميع الأسباب المتضادة كأسباب الصحة والمرض ، وأسباب الضعف والقوة .

والمقصود أن هذه الأسباب التى فيها لذة ما هى شر ، وإن نالت بها النفس مسرة عاجلة وهى بمنزلة طعام لذيذ شهى لكنه مسموم . إذا تناوله الآكل لذ لأكله وطاب له مساغه ، وبعد قليل يفعل به ما يفعل ، فهكذا المعاصى والذنوب ولا بد ، حتى لو لم يخبر الشارع بذلك لكان الواقع والتجربة الخاصة والعامة من أكبر شهوده وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته ؟ فإن الله

إذا أنعم على عبد بنعمته حفظها عليه ، ولا يغيرها عنه حتى يكون هو الساعى فى تغييرها عن نفسه : ﴿ **إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له . ومالهم من دونه من وال** ﴾[٢٧] ﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾[٢٨]

ومن تأمل ماقص الله فى كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم ، وجد سبب ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله ، وكذلك من نظر فى أحوال أهل عصره ، وما زال الله عنهم من نعمه أوجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب ، كما قيل :

إذا كنت فى نعمة فارعَها ۝ فإن المعاصى تُزيل النعم

فما حُفظت نعمة الله بشىء قط مثل طاعته ، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره ، ولا زالت عن العبد بمثل معصيته لربه ، فإنها نار النعم تعمل فيها كما تعمل النار فى الحطب اليابس . ومن سافر بفكره فى أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له .

والمقصود أن هذه الأسباب شرور ولا بد . وأما كون مسبباتها شرورا فلأنها آلام نفسية وبدنية ، فيجتمع على صاحبها مع شدة الألم الحسى ألم الروح بالهموم والغموم والأحزان والحسرات ولو تفطن العاقل اللبيب لهذا حق التفطن لأعطاه حقه من الحذر والجد فى الهرب ، ولكن قد ضُرب على قلبه حجاب الغفلة ليقضى الله أمراً كان مفعولا . فلو تيقظ حق التيقظ لتقطعت نفسه فى الدنيا حسرات على مافاته من حظه العاجل والآجل من الله وإنما يظهر له هذا حقيقة الظهور عند مفارقة هذا العالم ، والإشراف على عالم البقاء ، فحينئذ يقول : ﴿ **ياليتنى قدمت لحياتى** ﴾[٢٩] ، و ﴿ **ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله** ﴾[٣٠]

---

(٢٧) سورة (الرعد) الآية : رقم (١١) .
(٢٨) سورة (الأنفال) الآية : رقم (٥٣) .
(٢٩) سورة (الفجر) الآية : رقم (٢٤) .
(٣٠) سورة (الزمر) الآية : رقم (٥٦) .

ولما كان الشر هو الآلام وأسبابها كانت استعاذات النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم جميعها مدارها على هذين الأصلين . فكل ما استعاذ منه أو أمر بالاستعاذة منها فهو إما مؤلم ، وإما سبب يفضى إليه .

فكان يتعوّذ فى آخر الصلاة من أربع وأمر بالاستعاذة منهن ، وهى : « عذاب القبر ، وعذاب النار » فهذان أعظم المؤلمات « وفتنة المحيا والممات ، وفتنة المسيح الدجال »[٣١] وهذان سبب العذاب المؤلم ، فالفتنة سبب العذاب المؤلم . وذكر الفتنة خصوصا . وذكر نوعى الفتنة لأنها إما فى الحياة وإما بعد الموت . ففتنة الحياة قد يتراخى عنها العذاب مدة ، وأما فتنة الموت فيتصل بها العذاب من تراخ فعادت الاستعاذة إلى الاستعاذة من الألم والعذاب وأسبابها .

وهذا من آكد أدعية الصلاة حتى أوجب بعض السلف والخلف الإعادة على من لم يدع به فى التشهد الأخير . وأوجبه ابن حزم فى كل تشهد فإن لم يأت به فيه بطلت صلاته .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم « **اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، والعجز والكسل ، والجبن والبخل ، وضلع الدين وغلبة الرجال** »[٣٢] فاستعاذ من ثمانية أشياء كل اثنين منها قرينان .

فالهَمُّ والحزَن قرينان ، وهما من آلام الروح ومعذباتها . والفرق بينهما أن الهم توقع الشر فى المستقبل ، والحزن هو التألم على حصول المكروه فى الماضى ، أو فوات المحبوب وكلاهما تألم وعذاب يرد على الروح. فإن تعلق بالماضى سمى حزنا، وإن تعلق بالمستقبل سمى همًّا .

---

(٣١) رواه مسلم (٥٨٨) وأبو داود (٩٨٣) والنسائى (٣ / ٥٨) .

(٣٢) رواه البخارى فى كتاب (الدعوات) باب (الاستعاذه من الجبن والكسل) برقم (٦٣٦٩) جـ١١ « انظر الفتح » ومسلم فى (٢٧٠٦) وليس فيه (ومن ضلع الدين وغلبة الرجال) والترمذى (٣٤٨٠) وأبو داود (١٥٤١) جـ٢ والنسائى (جـ٨ / ٢٥٨ - ٢٥٩) .

والعجز والكسل قرينان ، وهما من أسباب الألم ، لأنهما يستلزمان فوات المحبوب . فالعجز يستلزم عدم القدرة ، والكسل يستلزم عدم إرادته . فتتألم الروح لفواته بحسب تعلقها به ، والتذاذها بإدراكه لو حصل .

والجبن والبخل قرينان ، لأنهما عدم النفع بالمال والبدن ، وهما من أسباب الألم . لأن الجبان تفوته محبوبات ومفرحات وملذوذات عظيمة لاتنال إلا بالبذل والشجاعة ، والبخل يحول بينه وبينها . فهذان الخلقان من أعظم أسباب الآلام .

وضلع الدَّين وقهر الرجال قرينان ، وهما مؤلمان للنفس معذبان لها . أحدهما قهر بحق ، وهو ضلع الدين ، الثانى قهر بباطل ، وهو غلبة الرجال . وأيضا فضلع الدين قهر بسبب من العبد فى الغالب ، وغلبة الرجال قهر بغير اختياره .

ومن ذلك تعوذه صلى الله عليه وعلى آله وسلم « من المأثم والمغرم »(٣٣) فإنهما يسببان الألم العاجل .

ومن ذلك قوله « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك »(٣٤) فالسخط سبب الألم ، والعقوبة هى الألم ، فاستعاذ من أعظم الآلام وأقوى أسبابها .

---

(٣٣) من حديث رواه البخارى وهذا تمامه : « حدثنا أبو اليمان قال أخبرنا شعيب عن الزهرى قال أخبرنا عروة بن الزبير عن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم أخبرته أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يدعو فى الصلاة : « اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات . اللهم إنى أعوذ بك من المأثم والمغرم » فقال له قائل : ماأكثر ما تستعيذ من المغرم ؟ فقال : إن الرجل إذا غرم حدث فكذب ووعد فأخلف (انظر فتح البارى) كتاب (الأذان) باب (الدعاء قبل السلام) رقم ٨٣٢ جـ٢ ومسلم فى (المساجد ومواضع الصلاة) رقم (٥٨٩) وأبو داود (٨٨٠) .

(٣٤) رواه مسلم (٤٨٦) ومالك فى الموطأ (جـ١ / ٢١٤) وأبو داود (٨٧٩) والترمذى (٣٤٩١) والنسائى (٢ / ٢٢٢) وأحمد (٦ - ٥٨) وابن ماجه جـ٢ برقم (٣٨٤١) .

فصـــــل

الاستعاذة من الشر الموجود ، والشر المعدوم

والشر المستعاذ منه نوعان : أحدهما موجود يطلب رفعه . والثانى معدوم يطلب بقاؤه على العدم وأن لا يوجد ، كما أن الخير المطلق نوعان : أحدهما موجود فيطلب دوامه وثباته وأن لايسلبه ، والثانى معدوم فيطلب وجوده وحصوله . فهذه أربعة هى أمهات مطالب السائلين من رب العالمين ، وعليها مدار طلباتهم .

وقد جاءت هذه المطالب الأربعة فى قوله تعالى حكاية عن دعاء عباده فى آخر آل عمران فى قولهم : ﴿ **ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربِّكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفِّر عنا سيئاتنا** ﴾(٣٥) فهذا مطلب لدفع الشر الموجود ، فإن الذنوب والسيئات شر كما تقدم بيانه ، ثم قال : ﴿ **وتوفنا مع الأبرار** ﴾(٣٦) فهذا طلب لدوام الخير الموجود ، وهو الإيمان حتى يتوفاهم عليه ، فهذان قسمان .

ثم قال ﴿ **ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك** ﴾(٣٧) فهذا طلب للخير المعدوم أن يؤتيهم إياه ، ثم قال ﴿ **ولا تُخزِنا يومَ القيامة** ﴾(٣٨)، فهذا طلب أن لايوقع بهم الشر المعدوم ، وهو خزى يوم القيامة .

فانتظمت الآيتان المطالب الأربعة أحسن انتظام ، مرتبة أحسن ترتيب . قدم فيها النوعان اللذان فى الدنيا ، وهما المغفرة ودوام الإسلام إلى الموت . ثم أتبعا بالنوعين اللذين فى الآخرة ، وهما أن يعطوا ما وعدوه على ألسنة رسله ، وأن

---

(٣٥) ، (٣٦) : سورة (آل عمران) الآية : رقم (١٩٣)

(٣٧) ، (٣٨) : سورة (آل عمران) الآية : رقم (١٩٤)

لا يخزيهم يوم القيامة .

فإذا عرف هذا فقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فى تشهد الخطبة : « **ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا** »[٣٩] يتناول الاستعاذة من شر النفس ، الذى هو معدوم لكنه فيها بالقوة ، فيسأل دفعه وأن لا يوجد .

وأما قوله « **من سيئات أعمالنا** » ففيه قولان :

أحدهما : أنه استعاذة من الأعمال السيئة التى قد وجدت ، فيكون الحديث قد تناول نوعى الاستعاذة من الشر المعدوم الذى لم يوجد ، ومن الشر الموجود . فطلب دفع الأول ورفع لثانى .

والقول الثانى : أن سيئات الأعمال هى عقوباتها وموجباتها السيئة التى تسوء صاحبها ، وعلى هذا يكون من استعاذة الدفع أيضاً ، دفع المسبب . والأول دفع السبب ، فيكون قد استعاذ من حصول الألم وأسبابه .

وعلى الأول تكون إضافة السيئات إلى الأعمال من باب إضافة النوع إلى جنسه ، فإن الأعمال جنس وسيئاتها نوع منها . وعلى الثانى تكون من باب إضافة المسبب إلى سببه ، والمعلول إلى علته ، كأنه قال : من عقوبة عملى ، والقولان محتملان .

فتأمل أيهما أليق بالحديث وأولى به ، فإن مع كل واحد منهما نوعا من الترجيح ، فيترجح الأول بأن منشأ الأعمال السيئة من شر النفس ، فشر النفس يولد الأعمال السيئة . فاستعاذ من صفة النفس ، ومن الأعمال التى تحدث عن تلك الصفة . وهذان جماع الشر وأسباب كل ألم . فمتى عوفى منهما عوفى من الشر بحذافيره ، ويترجح الثانى بأن سيئات الأعمال هى العقوبات التى تسوء العامل ، وأسبابها شر النفس فاستعاذ من العقوبات والآلام وأسبابها . والقولان فى الحقيقة متلازمان . والاستعاذة من أحدهما تستلزم الاستعاذة من الآخر .

---

(٣٩) رواه الإمام أحمد فى مسنده (١ / ٣٩٣) وابن ماجه برقمى (١٨٩٢ ، =

فصل

الدعاء الجامع لمصادر الشر وموارده والاستعاذة منها

ولما كان الشر له سبب هو مصدره وله مورد ومنتهى ، وكان السبب إما من ذات العبد ، وإما من خارج ، ومورده ومنتهاه إما نفسه ، وإما غيره ، كان هنا أربعة أمور : شر مصدره من نفسه ويعود على نفسه تارة وعلى غيره أخرى وشر مصدره من غيره وهو السبب فيه ، ويعود على نفسه تارة وعلى غيره أخرى . جمع النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم هذه المقامات الأربعة فى الدعاء الذى علمه الصديق رضى الله عنه أن يقوله إذا أصبح وإذا أمسى وإذا أخذ مضجعه : « **اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رب كل شي ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسى ، وشر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسى سوءاً أو أجُرَّه إلى مسلم** »(٤٠) فذكر مصدرى الشر ، وهما النفس والشيطان ، وذكر مورديه ونهايتيه ، وهما عوده على النفس . أو على أخيه المسلم . فجمع الحديث مصادر الشر وموارده فى أوجز لفظ وأحضره وأجمعه وأبينه .

= كتاب (النكاح) باب (خطبة النكاح) والبيهقى فى السنن من حديث ابن مسعود قال علمنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم خطبة الحاجة : « **إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا** ... » وساق الحديث .

(٤٠) رواه الترمذى (٣٣٨٩) فى كتاب (الدعوات) باب (ما يقال عند الصباح والمساء) وأبو داود (٥٠٦٧) فى (الأدب) باب (مايقال إذا أصبح) وأحمد (١ / ٩) وصححه ابن حبان (٢٣٤٩) والحاكم وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد جـ١٠ / ١٢٢ عن رواية أحمد : إسناده حسن .

فصــــــل

بيان الشر الأول المستعاذ منه عموم شر المخلوقات

فإذا عرف هذا فلنتكلم على الشرور والمستعاذ منها فى هاتين السورتين :

الشر الأول العام فى قوله: ﴿**من شر ما خلق**﴾[41] و «ما» ههنا موصولة ليس إلا . والشر مسند فى الآية إلى المخلوق المفعول ، لا إلى خلق الرب تعالى الذى هو فعله وتكوينه ، فإنه لاشر فيه بوجه ما ، فإن الشر لا يدخل فى شىء من صفاته ولا فى أفعاله ، كما لا يلحق ذاته تبارك وتعالى ، فإن ذاته لها الكمال المطلق الذى لانقص فيه بوجه من الوجوه . وأوصافه كذلك لها الكمال المطلق والجلال التام ، ولا عيب فيها ولا نقص بوجه ما ، وكذلك أفعاله كلها خيرات محضة ، لا شر فيها أصلا ، ولو فعل الشر سبحانه لاشتق له منه اسم ، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى ، ولعاد إليه منه حكم ، تعالى ربنا وتقدس عن ذلك .

وما يفعل من العدل بعباده وعقوبة من يستحق العقوبة منهم ، هو خير محض ، إذ هو محض العدل والحكمة وإنما يكون شرا بالنسبة إليهم ، فالشر وقع فى تعلقه بهم وقيامه بهم ، لا فى فعله القائم به تعالى ، ونحن لاننكر أن الشر يكون فى مفعولاته المنفصلة ، فإنه خالق الخير والشر .

ولكن هنا أمران ينبغى أن يكونا منك على بال .

أحدهما : أن ما هو شر أو متضمن للشر ، فإنه لايكون إلا مفعولا منفصلا ، لا يكون وصفا له ولا فعلا من أفعاله .

الثانى : أن كونه شراً هو أمر نسبى إضافى ؛ فهو خير من جهة تعلق فعل الرب وتكوينه به ، وشر من جهة نسبته إلى من هو شر فى حقه . فله وجهان ،

---

(٤١) سورة (الفلق) الآية : رقم (٢)

هو من أحدهما خير ، وهو الوجه الذى نسب منه إلى الخالق سبحانه وتعالى خلقا وتكوينا ومشيئة ، لما فيه من الحكمة البالغة التى استأثر بعلمها ، وأطلع من شاء من خلقه على ماشاء منها ، وأكثر الناس تضيق عقولهم عن مبادىء معرفتها ، فضلا عن حقيقتها فيكفيهم الإيمان المجمل بأن الله سبحانه هو الغنى الحميد ، وفاعل الشر لا يفعله إلا لحاجته المنافية لغناه . أو لنقصه وعيبه المنافى لحمده فيستحيل صدور الشر من الغنى الحميد فعلا ، وإن كان هو الخالق للخير والشر .

فقد عرفت أن كونه شراً هو أمر إضافى ، وهو فى نفسه خير من جهة نسبته إلى خالقه ومُبدعه . فلا تغفل عن هذا الموضع فإنه يفتح لك باب عظيما من معرفة الرب ومحبته ، ويزيل عنك شبهات حارت فيها عقول أكثر الفضلاء . وقد بسطت هذا فى كتاب « التحفة المكية » وكتاب « الفتح القدسى » ، وغيرهما

وإذا أشكل عليك هذا فأنا أوضحه لك بأمثلة ، أحدهما أن السارق إذا قطعت يده فقطعها شر بالنسبة إليه . وخير محض بالنسبة إلى عموم الناس لما فيه من حفظ أموالهم ودفع الضرر عنهم ، وخير بالنسبة إلى متولى القطع أمراً وحكما ، ولما فى ذلك من الإحسان إلى عبيده عموماً بإتلاف هذا العضو المؤذى لهم المضر بهم ، فهو محمود على حكمه بذلك ، وأمره به مشكور عليه يستحق عليه الحمد من عباده والثناء عليه والمحبة له . وكذلك الحكم بقتل من يصول عليهم فى دمائهم وحرماتهم ، وجلد من يصول عليهم فى أعراضهم .

فإذا كان هذا عقوبة من يصول عليهم فى دنياهم فكيف عقوبة من يصول على أديانهم ، ويحول بينهم وبين الهدى الذى بعث الله به رسله وجعل سعادة العباد فى معاشهم ومعادهم منوطة به ؟ أفليس فى عقوبة هذا الصائل خير محض وحكمة وعدل وإحسان إلى العبيد ؟ وهى شر بالنسبة إلى الصائل الباغى .

فالشر ما قام به من تلك العقوبة . وأما ما نسب إلى الرب منها من المشيئة والإرادة والفعل فهو عين الخير والحكمة ، فلا يغلظ حجابك عن فهم هذا النبأ العظيم ، والسر الذى يطلعك على مسألة القدر ، ويفتح لك الطريق إلى الله ومعرفة

حكمته ورحمته وإحسانه إلى خلقه ، وأنه سبحانه كما أنه البَر الرحيم الودود المحسن ، فهو الحكيم الملك العدل . فلا تناقض حكمتُه رحمتَه ، بل يضع رحمته وبره وإحسانه موضعه ، ويضع عقوبته وعدله وانتقامه وبأسه موضعه ، وكلاهما مقتضى عزته وحكمته وهو العزيز الحكيم . فلا يليق بحكمته أن يضع رضاه ورحمته موضع العقوبة والغضب ، ولا أن يضع غضبه وعقوبته موضع رضاه ورحمته . ولا يلتفت إلى قول من غلظ حجابه عن الله ، إن الأمرين بالنسبة إليه على حد سواء ، ولا فرق أصلا ، وإنما هو محض المشيئة بلا سبب ولا حكمة .

وتأمل القرآن من أوله إلى آخره كيف تجده كفيلا بالرد على هذه المقالة ، وإنكارها أشد الإنكار وتنزيه الرب نفسه عنها ، كقوله تعالى : ﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين ، مالكم كيف تحكمون** ﴾[٤٢] وقوله : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء مايحكمون** ﴾[٤٣] وقوله : ﴿ **أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ؟** ﴾[٤٤] فأنكر سبحانه على من ظن به هذا الظن السيء ، ونزه نفسه عنه ، فدل على أنه مستقر فى الفطر والعقول السليمة أن هذا لايكون ولا يليق بحكمته وعزته وإلاهيته ، لا إله إلا هو تعالى عما يقول الجاهلون علواً كبيراً .

وقد فطر الله عقول عباده على استقباح وضع العقوبة والانتقام فى موضع الرحمة والإحسان ومكافأ الصنع الجميل بمثله وزيادة ، فإذا وضع العقوبة موضع ذلك استنكرته فطرهم وعقولهم أشد الاستنكار ، واستهجنته أعظم الاستهجان . وكذلك وضع الإحسان والرحمة والإكرام فى موضع العقوبة والانتقام ، كما إذا جاء إلى من يسيء إلى العالم ، بأنواع الإساءة فى كل شيء من أموالهم وحريمهم

---

(٤٢) سورة (القلم) الآيتان : رقم (٣٥ : ٣٦)

(٤٣) سورة (الجاثية) الآية : رقم (٢١)

(٤٤) سورة (ص) الآية : رقم (٢٨)

ودمائهم ، فأكرمه غاية الإكرام ورفعه وكرمه ، فإن الفطر والعقول تأبى استحسان هذا وتشهد على سفه من فعله ، هذه فطرة الله التى فطر الناس عليها .

فماللعقول والفطر لا تشهد حكمته البالغة ، وعزته وعدله فى وضع عقوبته فى أولى المحال بها وأحقها بالعقوبة ؟ وأنها لو أوليت النعم لم تحسن بها ، ولم تلق ، ولظهرت مناقضة الحكمة كما قال الشاعر :

نعمة الله لا تعاب ، ولكن ربما استقبحت على أقوام

فهكذا نعم الله لا تليق ولا تحسن ولا تحمل بأعدائه الصادين عن سبيله الساعين فى خلاف مرضاته ، الذين يرضون إذا غضب ، ويغضبون إذا رضى ، ويعطلون ما حكم به ، ويسعون فى أن تكون الدعوة لغيره والحكم لغيره والطاعة لغيره ، فهم مضادون له فى كل ما يريد ، يحبون مايبغضه ويدعون إليه ، ويبغضون ما يحبه وينفرون عنه ، ويوالون أعداءه وأبغض الخلق إليه ، ويظاهرونهم عليه وعلى رسوله ، كما قال تعالى : ﴿ **وكان الكافر على ربه ظهيرا** ﴾[٤٥] ، وقال : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو** ﴾[٤٦]

فتأمل ما تحت هذا الخطاب الذى يسلب الأرواح حلاوة وعقابا وجلالة وتهديدا ، كيف صدره بإخبارنا أنه أمر إبليس بالسجود لأبينا فأبى ذلك ، فطرده ولعنه ، وعاداه من أجل إبائه عن السجود لأبينا ، ثم أنتم توالونه من دونى وقد لعنته وطردته ، إذا لم يسجد لأبيكم وجعلته عدوا لكم ولأبيكم فواليتموه وتركتمونى . أفليس هذا من أعظم الغبن وأشد الحسرة عليكم ؟ ويوم القيامة يقول تعالى : « **أليس عدلا منى أن أولى كل رجل منكم ما كان يتولى فى دار**

---

(٤٥) سورة (الفرقان) الآية : رقم (٥٥)

(٤٦) سورة (الكهف) الآية : رقم (٥٠)

الدنيا ؟ » فليعلمن أولياء الشيطان كيف حالهم يوم القيامة إذا ذهبوا مع أوليائهم ، وبقى أولياء الرحمن لم يذهبوا مع أحد ، فيتجلى لهم ويقول : « **ألا تذهبون حيث ذهب الناس ؟** » فيقولون : فارقنا الناس أحوج ما كنا إليهم ، وإنما ننتظر ربنا الذى كنا نتولاه ونعبده ، فيقول : « **هل بينكم وبينه علامة تعرفونه بها** » ؟ فيقولون : نعم إنه لامثل له . فيتجلى لهم ويكشف عن ساق فيخرون له سجدا(٤٧).

قروة عيون أوليائه بتلك الموالاة ، ويافرحهم إذا ذهب الناس مع أوليائهم ، وبقوا مع مولاهم الحق ، فسيعلم المشركون به الصادون عن سبيله أنهم ما كانوا أولياءه ﴿ **إن أولياؤه إلا المتقون ، ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾(٤٨)، ولا تستطل هذا البساط ، فما أحوج القلوب إلى معرفته وتعقله ، ونزولها منه منازلها فى الدنيا لتنزل فى جوار ربها فى الآخرة ، ﴿ **مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا** ﴾(٤٩)

فصل

تنزيه الرسول ربه عن نسبة الشر إليه تنزيهاً كاملاً

إذا عرفت هذا عرفت معنى قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فى الحديث الصحيح : « **لبيك وسعديك ، والخير فى يديك . والشر ليس إليك** »(٥٠) وأن معناه أجل وأعظم من قول من قال : والشر لايتقرب به إليك ، وقول من قال :

---

(٤٧) أحاديث الرؤية كثيرة ومتواترة فى البخارى جـ١٣ (٤١٩ / ٤٢٤) انظر الفتح ومسلم (١٨٣) وابن ماجه فى (المقدمة) باب (فيما أنكرت الجهمية) ١٧٧ / ١٧٨ / ١٧٩ جـ١ .

(٤٨) سورة (الأنفال) الآية : رقم (٣٤) .

(٤٩) سورة (النساء) الآية : رقم (٦٩) .

(٥٠) البخارى فى (كتاب الحج) باب (التلبية) رقم (١٥٥٠) وقال ابن حجر فى=

والشر لا يصعد إليك ، وأن هذا الذى قالوه – وإن تضمن تنزيهه عن صعود الشر إليه والتقرب به إليه – فلا يتضمن تنزيهه فى ذاته وصفاته وأفعاله عن الشر ، بخلاف لفظ المعصوم الصادق المصدق ، فإنه يتضمن تنزيهه فى ذاته تبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه بوجه ما ، لا فى صفاته ولا فى أفعاله ولا فى أسمائه وإن دخل فى مخلوقاته : كقوله : ﴿ **قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق** ﴾[٥١]

وتأمل طريقة القرآن فى إضافة الشر ، تارة إلى سببه ومن قام به ، كقوله : ﴿ **والكافرون هم الظالمون** ﴾[٥٢]، وقوله : ﴿ **والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾[٥٣]، وقوله : ﴿ **فبظلم من الذين هادوا** ﴾[٥٤]، وقوله : ﴿ **ذلك جزيناهم ببغيهم** ﴾[٥٥]، وقوله : ﴿ **وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين** ﴾[٥٦]، وهو فى القرآن أكثر من أن يذكر ههنا عشر معشاره ، وإنما المقصود التمثيل .

وتارة بحذف فاعله ، كقوله تعالى حكاية عن مؤمنى الجن : ﴿ **وأنَّا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رَشَدا** ﴾[٥٧]، فحذفوا فاعل الشر ومريده ، وصرحوا بمريد الرشد . ونظيره فى الفاتحة : ﴿ **صراط الذين أنعمت**

= الفتح فى الشرح للحديث زاد ابن عمر (لبيك اللهم لبيك وسعديك والخير فى يديك) جـ٣ وأحمد فى (٥ / ١٩١) وابن ماجه برقم (٢٩١٨) والزيادة أيضاً لابن عمر موقوفاً عليه .

(٥١) سورة (الفلق) الآيتان رقم (١ – ٢) .

(٥٢) سورة (البقرة) الآية رقم (٢٥٤) .

(٥٣) سورة (المائدة) الآية رقم (١٠٨) .

(٥٤) سورة (النساء) الآية رقم (١٦٠) .

(٥٥) سورة (الأنعام) الآية رقم (١٤٦) .

(٥٦) سورة (الزخرف) الآية رقم (٧٦) .

(٥٧) سورة (الجن) الآية رقم (١٠) .

عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين ﴾[٥٨] فذكر النعمة مضافة إليه سبحانه ، والضلال منسوبا إلى من قام به ، والغضب محذوفا فاعله .

ومثله قول الخضر فى السفينة : ﴿ **فأردت أن أعيبها** ﴾[٥٩]، وفى الغلامين ﴿ **فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك** ﴾[٦٠]، ومثله قوله : ﴿ **ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزيَّنه فى قلوبكم ، وكرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان** ﴾[٦١]فنسب هذا التزيين المحبوب إليه . وقال : ﴿ **زُين للناس حب الشهوات من النساء والبنين** ﴾[٦٢]، فحذف الفاعل المزين . ومثله قول الخليل صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ﴿ **الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضتُ فهو يشفين . والذى يميتُنى ثم يُحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين** ﴾[٦٣]، فنسب إلى ربه كل كمال من هذه الأفعال ، ونسب إلى نفسه النقص منها وهو المرض والخطيئة .

وهذا كثير فى القرآن ، ذكرنا منه أمثلة كثيرة فى كتاب « الفوائد المكية » وبينا هناك السر فى مجىء ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب** ﴾[٦٤]، ﴿ **والذين أوتوا الكتاب** ﴾[٦٥]، والفرق بين الموضعين ، وأنه حيث ذكر الفاعل كان من آتاه الكتاب واقعا فى سياق المدح ، وحيث حذفه كان من أوتيه واقعاً فى سياق الذم أو منقسما ، وذلك من أسرار القرآن . ومثله ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا**

(٥٨) سورة (الفاتحة) الآية رقم (٧)
(٥٩) سورة (الكهف) الآية رقم (٧٩)
(٦٠) سورة (الكهف) الآية رقم (٨٢)
(٦١) سورة (الحجرات) الآية رقم (٧)
(٦٢) سورة (آل عمران) الآية رقم (١٤)
(٦٣) سورة (الشعراء) الآيات رقم (٧٨ : ٨٢)
(٦٤) سورة (البقرة) الآية رقم (١٢١)
(٦٥) ورد قوله تعالى (**الذين أتوا الكتاب**) فى أكثر من موضع منها فى سورة (التوبة) الآية رقم (٢٩) و (المدثر) الآية (٣١) و(البينة) الآية رقم (٤) ولم ترد فى الآيات « بالواو » بداية وأظنها من كلام المؤلف وليست من أصل الآية .

من عبادنا ﴾[٦٦]، وقال : ﴿ **وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب** ﴾[٦٧]، وقوله : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى** ﴾[٦٨]، وبالجملة فالذى يضاف إلى الله تعالى كله خير وحكمة ومصلحة وعدل ، والشر ليس إليه .

فصـــل

الاستعاذة من شر كل مخلوق قام به الشر

وقد دخل فى قوله تعالى ﴿ **من شر ماخلق** ﴾[٦٩] الاستعاذة من كل شر فى أى مخلوق قام به الشر من حيوان أو غيره ، إنسيا كان أو جنيا أو هامة أو دابة أو ريحا أو صاعقة ، أى نوع كان من أنواع البلاء .

فإن قلت : فهل فى « ما » ههنا عموم ؟ قلت : فيها عموم تقييدى وصفى ، لا عموم إطلاقى . والمعنى : من شر كل مخلوق فيه شر ، فعمومها من هذا الوجه . وليس المراد الاستعاذة من شر كل ما خلقه الله ، فإن الجنة وما فيها ليس فيها شر ، وكذلك الملائكة والأنبياء فإنهم خير محض والخير كله حصل على أيديهم فالاستعاذة من شر ما خلق تعم شر كل مخلوق فيه شر ، وكل شر فى الدنيا والآخرة ، وشر شياطين الإنس والجن ، وشر السباع والهوام ، وشر النار والهواء وغير ذلك .

وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال : « **من نزل منزلا فقال : « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق » لم يضره شىء حتى**

---

(٦٦) سورة (فاطر) الآية رقم (٣٢)
(٦٧) سورة (الشورى) الآية رقم (١٤)
(٦٨) سورة (الأعراف) الآية رقم (١٦٩)
(٦٩) سوة (الفلق) الآية رقم (٢)

يرتحل منه » رواه مسلم . وروى أبو داود[٧٠] فى سننه عن عبد الله بن عمر قال « كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذا سافر فأقبل الليل قال : « **يا أرض ! ربى وربك الله ، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك وشر ما خلق فيك وشر ما يدب عليك ، أعوذ بالله من أسد وأسود ، ومن الحية والعقرب ، ومن ساكن البلد ، ومن والد وما ولد** »[٧١]. وفى الحديث الآخر : « **أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجر من شر ماخلق ، وذرأ وبرأ ، ومن شر ما نزل من السماء ، وما يعرج فيها ، ومن شر ما ذرأ فى الأرض وما يخرج منها ، ومن شر فتن الليل والنهار ، ومن شر كل طارق إلا طارقا يطرق بخير ، يارحمن !** »[٧٢].

---

(٧٠) رواه مسلم (٢٧٠٨) جـ٤ وأحمد فى مسنده (٦ / ٤٠٩) والترمذى (٣٤٣٣) فى كتاب (الدعوات) باب (ماجاء مايقول إذا نزل منزلاً) وأبو داود (٢٦٠٣) فى كتاب (الجهاد) باب (مايقول الرجل إذا ترك المنزل) .

(٧١) رواه أبو داود (٢٦٠٣) جـ٣ وأحمد فى مسنده (٢ / ١٣٢) ، (٣ - ١٢٤) وفى سنده الزبيرى بن الوليد الشامى ، لم يوثقه غير ابن حبان ، ومع ذلك فقد صححه الحاكم (٢ / ١٠٠) ووافقه الذهبى وحسنه الحافظ فى « أمالى الأذكار » [انظر زاد المعاد جـ٢ صـ٤٤٩] قال الألبانى : والحديث فى إسناده جهالة ، وإن صححه الحاكم والذهبى ، وحسنه العسقلانى فانظر « الضعيفة » (٤٨٣٧) [انظر رياض الصالحين بتحقيق الألبانى حديث (٩٩٠)] .

فائدة :

« والأسود » الشخصى ؛ قال الخطابى « وساكنى البلد » هم الجن الذين هم سكان الأرض . قال : والبلد من الأرض ما كان مأوى الحيوان وإن لم يكن فيه بناء ومنازل . قال : ويحتمل أن المراد : « بالوالد » إبليس : « وما يلد » : الشياطين « انظر رياض الصالحين حديث (٩٩٠) » .

(٧٢) أورده الهيثمى فى (مجمع الزوائد) (١٠ / ١٢٦) وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه زكريا بن يحيى بن أيوب الضرير المدائنى ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات وفى (١٠ / ١٢٦ / ١٢٧) قال : رواه الطبرانى وفيه المسيب بن واضح وقد وثقه غير واحد وضعفه جماعة وكذلك الحسن بن علي المعمرى وبقية رجاله رجال الصحيح . وأحمد فى مسنده (٣ / ٤١٩) .

فصـــــل

بيان الشر الثانى المستعاذ منه : شر الغاسق إذا وقَبَ

والشر الثانى : شر الغاسق إذا وقب . خاص بعد عام . وقد قال أكثر المفسرين : إنه الليل .

قال ابن عباس : الليل إذا أقبل بظلمته من المشرق ، ودخل فى كل شىء وأظلم ، والغسق الظلمة . يقال : غسق الليل وأغسق ، إذا أظلم . ومنه قوله تعالى : ﴿ **أقم الصلاة لدُلوك الشمس إلى غسق الليل** ﴾[٧٣]، وكذلك قال الحسن ومجاهد : الغاسق إذا وقب : الليل إذا أقبل ودخل . والوقوب : الدخول وهو دخول الليل بغروب الشمس . وقال مقاتل : يعنى ظلمة الليل إذا دخل سواده فى ضوء النهار .

وفى تسمية الليل غاسقا قول آخر إنه من البرد ، والليل أبرد من النهار . والغسق : البرد . وعليه حمل ابن عباس قوله تعالى : ﴿ **فليذوقوه حميم وغساق** ﴾[٧٤]، وقوله : ﴿ **لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميما وغسَّاقا** ﴾[٧٥]، قال : هو الزمهرير يحرقهم ببرده كما تحرقهم النار بحرِّها ، وكذلك قال مجاهد ومقاتل : هو الذى انتهى برده . ولا تنافى بين القولين ، فإن الليل بارد مظلم ، فمن ذكر برده فقط أو ظلمته فقط ، اقتصر على أحد وصفيه .

والظلمة فى الآية أنسب لمكان الاستعاذة ، فإن الشر الذى يناسب الظلمة أولى بالاستعاذة من البرد الذى فى الليل ولهذا استعاذ برب الفلق الذى هو الصبح

---

(٧٣) سورة (الإسراء) الآية رقم (٧٨)

(٧٤) سورة (ص) الآية (٥٧)

(٧٥) سورة (النبأ) الآيتان (٢٤ ــ ٢٥)

والنور ، من شر الغاسق الذى هو الظلمة . فناسب الوصف المستعاذ به للمعنى المطلوب بالاستعاذة ، كما سنزيده تقريرا عن قريب إن شاء الله .

فإن قيل : فما تقولون فيما رواه الترمذى من حديث ابن أبى ذئب عن الحارث ابن عبد الرحمن عن أبى سلمة عن عائشة قالت : أخذ النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم بيدى فنظر إلى القمر فقال : « **ياعائشة ! استعيذى بالله من شر هذا ، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب** »(٧٦) قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح . وهذا أولى من كل تفسير فيتعين المصير إليه ، قيل هذا التفسير حق ، ولا يناقض التفسير الأول ، بل يوافقه ويشهد بصحته ، فإن الله تعالى قال : ﴿ **وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل ، وجعلنا آية النهار مُبصِرة** ﴾(٧٧)، فالقمر هو آية الليل وسلطانه ، فهو أيضاً غاسق إذا وقب ، كما أن الليل غاسق إذا وقب ، والنبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم أخبرنا عن القمر بأنه غاسق إذا وقب وهذا خبر صدق ، وهو أصدق الخبر ، ولم ينف عن الليل اسم الغاسق إذا وقب .

وتخصيص النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم له بالذِّكر لا ينفى شمول الاسم لغيره ، ونظير هذا قوله فى المسجد الذى أسس على التقوى – وقد سئل عنه – فقال : « **هو مسجدى هذا** »(٧٨)، ومعلوم أن هذا لاينفى كون مسجد قباء

---

(٧٦) رواه الترمذى فى كتاب (التفسير) باب (سورة التوبة) عن أبى سعيد الخدرى وقال ابن حجر فى (كتاب التفسير) باب سورة (**قل أعوذ برب الفلق**) : وجاء فى حديث مرفوع أن الغاسق القمر ، أخرجه الترمذى والحاكم من طريق أبى سلمة عن عائشة (ثم ساق الحديث) ثم قال : إسناده حسن ورواه أحمد فى مسنده (٦ – ٢٣٧ ، ٢٥٢) .

(٧٧) سورة (الإسراء) الآية رقم (١٢)

(٧٨) رواه أحمد فى مسنده (٣ / ٨٩ ، ٩١) ، (٥ / ١١٦ ، ٣٣١) وأورده الهيثمى فى « مجمع الزوائد » (٤ / ١٠) من حديث سهل بن سعد بروايتين وقال رواه كله أحمد والطبرانى باختصار ورجالهما رجال الصحيح ، ثم روى حديثاً عن أبى بن كعب رحمه الله أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : « **المسجد** =

مؤسسا على التقوى مثل ذاك . ونظيره أيضاً قوله فى علي وفاطمة والحسن والحسين رضى الله عنهم أجمعين « **اللهم هؤلاء أهل بيتى** »(٧٩) . فإن هذا لا ينفى دخول غيرهم من أهل بيته فى لفظ « أهل البيت » ولكن هؤلاء أحق من دخل فى لفظ أهل بيته .

ونظير هذا قوله : « **ليس المسكين بهذا الطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذى لا يسأل الناس شيئاً . ولا يفطن له فيتصدق عليه** »(٨٠) وهذا لا ينفى اسم المسكنة عن الطواف ، بل ينفى اختصاص الاسم به ، وتناول المسكين لغير السائل أولى من تناوله له . ونظير هذا قوله : « **ليس الشديد بالصرعة ، ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب** »(٨١) . فإنه لا يقتضى نفى الاسم عن الذى يصرع الرجال . ولكن يقتضى أن ثبوته للذى يملك نفسه عند الغضب أولى .

ونظيره : الغسق والوقوب ، وأمثال ذلك . فكذلك قوله فى القمر « **هذا هو**

= **الذى أسس على التقوى هو مسجدى هذا** » رواه أحمد وفيه عبد الله بن عامر الأسلمى وهو ضعيف وأورده أيضا فى « مجمعه » (٧ / ٣٤) من حديث زيد بن ثابت أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم سئل عن المسجد الذى أسس على التقوى ؟ قال : (**هو مسجدى هذا**) رواه الطبرانى مرفوعاً وموقوفاً وفى إسناد المرفوع عبد الله بن عامر الأسلمى وهو ضعيف .

(٧٩) رواه أحمد فى مسنده (١ - ١٨٥) ، (٤ - ١٠٧) وابن أبى عاصم فى كتاب السنة جـ٢ حديث (١٣٥١) وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٩ / ١٦٧) وقال : رواه أحمد وأبو يعلى باختصار . وزاد (إليك لا إلى النار) والطبرانى وفيه محمد بن مصعب وهو ضعيف الحديث سيء الحفظ رجل صالح فى نفسه .

(٨٠) رواه البخارى فى كتاب (الزكاة) باب (قول الله تعالى ﴿ **لايسألون الناس إلحافا** ﴾) رقم (١٤٧٩) جـ٣ (انظر الفتح) ومسلم (١٠٣٩) .

(٨١) الحديث « متفق عليه » رواه البخارى فى كتاب (الأدب) باب (الحذر من الغضب) رقم (٦١١٤) جـ١٠ (انظر الفتح) ومسلم (٢٦٠٩) و أحمد =

الغاسق إذا وقب »[٨٢]، لا ينفى أن يكون الليل غاسقا بل كلاهما غاسق .

فإن قيل : فما تقولون فى القول الذى ذهب إليه بعضهم : أن المراد به القمر إذا خسف واسود ، وقوله (**وقب**) أى دخل فى الخسوف ، أو غاب خاسفاً ؟

قيل : هذا القول ضعيف ، ولا نعلم به سلفا . والنبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم لما أشار إلى القمر وقال « هذا الغاسق إذا وقب » لم يكن خاسفا إذ ذاك وإنما كان مستنيراً ، ولو كان خاسفاً لذكرته عائشة ، وإنما قالت : نظر إلى القمر وقال « **هذا هو الغاسق** » ولو كان خاسفا لم يصح أن يحذف ذلك الوصف منه ، فإن ما أطلق عليه اسم (الغاسق) باعتبار صفة لايجوز أن يطلق عليه بدونها لما فيه من التلبيس .

وأيضاً فإن اللغة لاتساعد على هذا ، فلا نعلم أحداً قال : الغاسق ، القمر فى حال خسوفه . وأيضاً فإن الوقوب لايقول أحد من أهل اللغة إنه الخسوف ، وإنما هو الدخول من قولهم : وقَبَت العين : إذا غارت وركية وقباء : غار ماؤها فدخل فى أعماق التراب ومنه الوقب : للثقب الذى يدخل فيه المحور . وتقول العرب : وقب يقب وُقوبا ، إذا دخل .

فإن قيل : فما تقولون فى القول الذى ذهب إليه بعضهم : أن الغاسق هو الثريا إذا سقطت ، فإن الأسقام تكثر عند سقوطها وغروبها وترتفع عند طلوعها ؟ قيل : إن أراد صاحب هذا القول اختصاص الغاسق بالنجم إذا غرب فباطل ، وإن أراد أن اسم الغاسق يتناول ذلك بوجه ما ، فهذا يحتمل أن يدل اللفظ عليه بفحواه ومقصوده وتنبيهه ، وأما أن يختص اللفظ به فباطل .

فصل

وجه الاستعاذة من شر الليل

والسبب الذى لأجله أمر الله بالاستعاذة من شر القمر إذا وقب ، هو أن الليل

= فى مسنده (٢ - ٢٣٦ / ٢٦٨ / ٥١٧)

فائدة: و (الصُرَعة) بضم الصاد وفتح الراء. وأصله عند العرب من يصرع الناس كثيراً.

(٨٢) سبق تخريجه برقم (٧٦) فلترجع إليه .

الليل إذا أقبل فهو محل سلطان الأرواح الشريرة الخبيثة ، وفيه تنتشر الشياطين . وفى الصحيح « أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم أخبر أن الشمس إذا غربت انتشرت الشياطين »[٨٣]، ولهذا قال : « **فاكفتوا صبيانكم ، واحبسوا مواشيكم ، حتى تذهب محمة العشاء** »[٨٤]. وفى حديث آخر « **فإن الله يبث من خلقة ما يشاء** »[٨٥]*. والليل هو محل الظلام ، وفيه تتسلط شياطين الإنس والجن مالا تتسلط بالنهار فالنهار ، نور ، والشياطين إنما سلطانهم فى الظلمات والمواضع المظلمة ، وعلى أهل الظلمة .

وروى أن سائلا سأل مسيلمة : كيف يأتيك الذى يأتيك ؟ فقال : فى ظلماء حندس وسُئل النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم : كيف يأتيك ؟ فقال : « **فى مثل ضوء النهار** »[٨٥] فاستدل بهذا على نبوته ، وأن الذى يأتيه ملك من

---

(٨٣) أورد الحديث الهيثمى فى « مجمع الزوائد » من حديث ابن عباس قال « **إذا غربت الشمس فكفوا صبيانكم فإنها ساعة تنتشُر فيها الشياطين** » رواه الطبرانى وفيه ليث ابن أبى سليم وهو مدلس وبقية رجاله ثقات . قال الألبانى فى « السلسلة الصحيحة » برقم (١٣٦٦) وهذا إسناد ضعيف . ولكن الحديث صحيح له شاهد من حديث جابر « **إذا كان جنح الليل ، فكفوا صبيانكم ، فإن الشياطين تنتشر حينئذ ، فإذا ذهبت ساعة من العشاء فخلوهم** » (السلسلة الصحيحة جـ١ رقم (٤٠))

(٨٤) لم أجده بلفظه ووجدته عند البخارى فيما أخرجه من « حديث جابر » فى كتاب (بدء الخلق) باب (إذا وقع الذباب فى شراب أحدكم) بلفظ « **واكفئوا صبيانكم عند المساء فإن للجن انتشاراً وخطفة** » برقم (٣٣١٦) جـ٦ انظر الفتح وعند « الألبانى » فى الصحيحة برقم (٩٠٥) بلفظ (**احبسوا صبيانكم حتى تذهب فوعة العشاء** » وقال أخرجه الحاكم (٤ / ٢٨٤) .

(٨٥) أورده الهيثمى فى « مجمع الزوائد » بلفظ « **إن لله عز وجل خلقاً يبثهم تحت الليل كيف شاء فأوكئوا السقاء وأغلقوا الأبواب وغطوا الإناء فإنه لايفتح باب ولا يكشف غطاء ولا يحل وكاء** » قلت رواه ابن ماجه مختصرا – رواه أبو يعلى وفيه عبد الله بن سعيد المقبرى وهو ضعيف (انظر مجمع الزوائد ٨ / ١١١) وأحمد فى مسنده (٣ – ٣٥٥)

(٨٥)* لم أجده بلفظه ويشهد لآخره قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨/٢٥٥) إنى أرى ضوءً رواه أحمد متصلاً ومرسلاً والطبرانى بنحوه وزاد وأعينه ورجال أحمد رجال الصحيح.اهـ.

عند الله ، وأن الذى يأتى مسيلمة شيطان . ولهذا كان سلطان السحر وعظم تأثيره إنما هو بالليل دون النهار ، فالسحر الليلى عندهم هو السحر القوى التأثير ، ولهذا كانت القلوب المظلمة هى محال الشياطين وبيوتهم ومأواهم ، الشياطين تجول فيها وتتحكم كما يتحكم ساكن البيت فيه . وكلما كان القلب أظلم كان للشيطان أطوع وهو فيه أثبت وأمكن .

فصل

بيان قهر نور الإيمان والقرآن ظلمة الكفر والسحر

ومن ههنا تعلم السر فى الاستعاذة برب الفلق فى هذا الموضع . فإن الفلق هو الصبح الذى هو مبدأ ظهور النور . وهو الذى يطرد جيش الظلام وعسكر المفسدين فى الليل . فيأوى كل خبيث وكل مفسد وكل لص وكل قاطع طريق إلى سرب أو كن أو غار ، وتأوى الهوام إلى أجحرتها ، والشياطين التى انتشرت بالليل إلى أمكنتها ومحالها ، فأمر الله عباده أن يستعيذوا برب النور الذى يقهر الظلمة ويُزيلها ويقهر عسكرها وجيشها .

ولهذا ذكر سبحانه فى كل كتاب أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النور ، ويدع الكفار فى ظلمات كفرهم . قال الله تعالى : ﴿ **الله ولى الذين آمنوا يُخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يُخرجونهم من النور إلى الظلمات** ﴾[٨٦] وقال تعالى : ﴿ **أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس ، كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها** ﴾[٨٧] . وقال فى أعمال الكفار : ﴿ **أو كظلمات فى بحر لُجىٍّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم**

---

(٨٦) سورة (البقرة) الآية رقم (٢٥٧)

(٨٧) سورة (الأنعام) الآية رقم (١٢٢)

يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾[88]، وقد قال قبل ذلك فى صفات أهل الإيمان ونورهم ﴿ **الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دُرِّىٌّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء** ﴾[89].

فالإيمان كله نور ، ومآله إلى نور ، ومستقره فى القلب المضىء المستنير ، والمقترن بأهله الأرواح المستنيرة المضيئة المشرقة ، والكفر والشرك كله ظلمة ، ومآله إلى الظلمات ، ومستقره فى القلوب المظلمة ، والمقترن بأهله الأرواح المظلمة .

فتأمل الاستعاذة برب الفلق من شر الظلمة ، ومن شر ما يحدث فيها ، ونزل هذا المعنى على الواقع يشهد بأن القرآن ، بل هاتان السورتان ، من أعظم أعلام النبوة وبراهين صدق رسالة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ومضادة لما جاء به الشياطين من كل وجه ، وأن ما جاء به : ﴿ **وما تنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم وما يستطيعون** ﴾[90]، فما فعلوه ، ولا يليق بهم ، ولا يتأتى منهم ، ولا يقدرون عليه ، وفى هذا أبين جواب وأشفاه لما يورده أعداء الرسول عليه من الأسئلة الباطلة التى قصر المتكلمون غاية التقصير فى دفعها ، وما شفوا فى جوابها وإنما الله سبحانه هو الذى شفى وكفى فى جوابها ، فلم يحوجنا إلى متكلم ولا إلى أصولى ولا إلى نظار . فله الحمد والمنة ، لا نحصى ثناء عليه .

فصل

حكمة الاستعاذة برب الفلق ، وهو الخلق كله

واعلم أن الخلق كله فلق . وذلك أن « فلقا » فَعَلٌ بمعنى مفعول ، كقبض

---

(٨٨) سورة (النور) الآية رقم (٤٠)

(٨٩) سورة (النور) الآية رقم (٣٥)

(٩٠) سورة (الشعراء)الآيتان رقم (٢١٠ - ٢١١)

وسلب وقنص : بمعنى مقبوض ومسلوب ومنقوص . والله عز وجل ﴿ **فالق الإصباح** ﴾(٩١)، و ﴿ **فالق الحب والنوى** ﴾(٩٢)، وفالق الأرض عن النبات ، والجبال عن العيون ، والسحاب عن المطر ، والأرحام عن الأجنة ، والظلام عن الإصباح ، ويسمى الصبح المتصدع عن الظلمة فلقا وفرقا . يقال : هو أبيض من فَرَق الصبح وفَلَقه .

وكما أن فى خلقه فلقا وفرقا فكذلك أمره كله فرقان ، يفرق بين الحق والباطل ، فيفرق ظلام الباطل بالحق ، كما يفرق ظلام الليل بالإصباح . ولهذا سمى كتابه « الفرقان » ونصره فرقاناً لتضمنه الفرق بين أوليائه وأعدائه ومنه فلْقه البحر لموسى وسماه فلقا فظهرت حكمة الاستعاذة برب الفلق فى هذه المواضع ، وظهر بهذا إعجاز القرآن وعظمته وجلالته ، وأن العباد لا يقدرون قدره وأنه ﴿ **تنزيل من حكيم حميد** ﴾(٩٣).

فصـــل

الاستعاذة من شر السحر وتحقيق إثباته

الشر الثالث : شر النفاسات فى العقد ، وهذا الشر هو شر السحر . فإن النفاثات فى العقد هن السواحر اللاتى يعقدن الخيوط ، وينفثن على كل عقدة حتى ينعقد ما يردن من السحر . والنفث هو النفخ مع ريق وهو دون التفل وهو مرتبة بينهما .

والنفث فعل الساحر ، فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذى يريده بالمسحور ، ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة ، نفخ فى تلك العقد نفخا معه

(٩١) سورة (الأنعام) الآية رقم (٩٦)

(٩٢) سورة (الأنعام) الآية رقم (٩٥)

(٩٣) سورة (فصلت) الآية رقم (٤٢)

ريق ، فيخرج من نفسه الخبيثة نَفس ممازج للشر والأذى ، مقترن بالريق الممازج لذلك ، وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور . فيقع فيه السحر بإذن الله الكونى القدرى ، لا الأمر الشرعى .

فإن قيل : فالسحر يكون من الذكور والإناث ، فَلِمَ خص الاستعاذة من الإناث دون الذكور ؟

قيل فى جوابه : إن هذا خرج على السبب الواقع ، وهو أن بنات لبيد بن الأعصم سحرن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم . هذا جواب أبى عبيدة وغيره ، وليس هذا بسديد . فإن الذى سحر النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو لبيد بن الأعصم لابناته كما جاء فى الصحيح .

والجواب المحقق أن النفاثات هنا هن الأرواح والأنفس النفاثات ، لا النساء النفاثات لأن تأثير السحر إنما هو من جهة الأنفس الخبيثة والأرواح الشريرة ، وسلطانه إنما يظهر منها ، فلهذا ذكرت النفاثات هنا بلفظ التأنيث دون التذكير ، والله أعلم .

ففى الصحيح [عن عيسى بن يونس] عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم طُب (أى سحر) حتى أنه ليخيل إليه أنه صنع شيئاً وما صنعه ، وأنه دعا ربه ثم قال : « **أشعرتِ وأن الله قد أفتانى فيما استفتيته فيه** »؟ فقالت عائشة : وماذاك يارسول الله ؟ قال : « **جاءنى رجلان فجلس أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلىّ ، فقال أحدهما لصاحبه : ما وجع الرجل ؟ قال الآخر : مطبوب** (أى مسحور) **قال من طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم قال : فبماذا ؟ قال : فى مشط ومشاطة وجف** (الغشاء على طلع النخلة) **طلع ذكر . قال : فأين هو ؟ قال : فى ذروان بئر فى بنى زريق** » قالت عائشة رضى الله عنها : فأتاها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم (فى ناس من أصحابه) ثم رجع إلى عائشة فقال : « **والله لكأن ماءها نقاعة الحناء ولكأن نخلها رؤوس الشياطين** ». قالت : فقلت له : يارسول الله هلا

أخرجته ؟ قال : « **أما أنا فقد شفانى الله ، وكرهت أن أثير على الناس شراً** » فأمر بها فدفنت(٩٤)

قال البخارى : وقال الليث وابن عيينة عن هشام : « **فى مشط ومشاقة** » . ويقال إن المشاطة ما يخرج من الشعر إذا مشط والمشاقة من مشاقة (الكتان أى ما يخرج من الكتان عند سرحه) .

قلت : هكذا فى هذه الرواية أنه لم يخرجه اكتفاء بمعافاة الله له وشفائه إياه

وقد روى البخارى من حديث ابن عيينة قال : أول من حدثنا به ابن جريج ، يقول حدثنى آل عروة عن عروة ، فسألت هشاما عنه ، فحدثنا عن أبيه عن عائشة « كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم سحر حتى كان يرى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن قال سفيان : وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا ، فقال : « **ياعائشة أعلمت أن الله قد أفتانى فيما استفتيته فيه ؟ أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى ، فقال الذى عند رأسى للآخر : ما بال الرجل ؟ قال : مطبوب . قال : ومن طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم ، رجل من بنى زريق حليف ليهود . كان منافقا . قال** . وفيم ؟ **قال : فى مشط ومشاقة . قال : وأين ؟ قال : فى جف طلع تحت راعوقة** (حجر فى أسفل البئر لايستطاع نزعه) **فى بئر ذروان** » قال : فأتى البئر حتى استخرجه . فقال : « **هذه البئر التى أريتها وكأن ماءها نقاعة الحناء وكأن نخلها رؤوس الشياطين** » . قال : فاستخرج . قالت ، فقلت : أفلا – أى تنشرت – (من النشرة بالضم ، يعالج به المسحور) قال: «**أما [و] الله فقد شفانى . وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً**»(٩٥) ففى هذا الحديث أنه استخرجه وترجم البخارى عليه : باب هل يستخرج السحر ، وقال قتادة قلت لسعيد بن المسيب :

---

(٩٤) رواه البخارى فى كتاب (الطب) باب (السحر) رقم (٥٧٦٣) جـ١٠ (انظر الفتح).

(٩٥) رواه البخارى فى كتاب (الطب) باب (هل يستخرج السحر) رقم (٥٧٦٥) جـ١٠ (الفتح) : ومسلم فى كتاب (السلام) باب (السحر) رقم (٢١٨٩) جـ٤

رجل به طب [أ] ويؤخَّذ عن امرأته [أى يحبس دون جماعها] أيحل عنه [أ] وينشر (أى يعالج) ؟ قال ، لابأس به ، إنما يريدون به الإصلاح ، فأما ما ينفع الناس فلم ينه عنه(٩٦).

فهذان الحديثان قد يظن فى الظاهر تعارضهما ، فإن حديث عيسى عن هشام عن أبيه ، الأول فيه : « أنه لم يستخرجه » وحديث ابن جريج عن هشام فيه : « أنه استخرجه » ، ولا تنافى بينهما ، فإنه استخرجه من البئر حتى رآه وعلمه ، ثم دفنه بعد أن شفى . وقول عائشة : « وهلا استخرجته » ؟ أى هلا أخرجته للناس حتى يروه ويعاينوه ؟ فأخبرها بالمانع له من ذلك ، وهو أن المسلمين لم يكونوا ليسكتوا عن ذلك ، فيقع الإنكار ، ويغضب للساحر قومه ، فيحدث الشر . وقد حصل المقصود بالشفاء والمعافاة ، فأمر بها فدفنت ، ولم يستخرجها للناس ، فالاستخراج الواقع غير الذى سألت عنه عائشة . والذى يدل عليه أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم إنما جاء إلى البئر ليستخرجها منه ، ولم يجيء لينظر إليها ثم ينصرف ، إذ لا غرض له فى ذلك ، والله أعلم .

وهذا الحديث ثابت عند أهل العلم بالحديث ، متلقى بالقبول بينهم ، لا يختلفون فى صحته ، وقد اعتاض على كثير من أهل الكلام وغيرهم ، وأنكروه أشد الإنكار وقابلوه بالتكذيب وصنف بعضهم مصنفا مفردا حمل فيه على هشام (ابن عروة بن الزبير) وكان غاية ما أحسن القول فيه أن قال : « غلط واشتبه عليه الأمر ولم يكن من هذا شيء »

---

(٩٦) ذكره ابن حجر فى الشرح وجعله بعد عنوان الباب مباشرة (انظر المصدر السابق) وذكر أيضاً فى نفس الباب تحت قوله (أو ينشر) قال :
وذكر ابن بطال أن فى كتب (**وهب بن منبه**)(*) أن يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضربه بالماء ويقرأ فيه آية الكرسى والقوافل ثم يحسو منه ثلاث حسوات ثم يغتسل به فإنه يذهب عنه كل مابه وهو جيد للرجل إذا حبس عنه أهله ... اهـ .

(*) وهب بن منبه : ثقة . عالم أهل اليمن روى عن أبى هريرة وعبد الله بن عمر . وابن عباس وأبو سعيد . وجابر بن عبد الله . وغيرهم . وعنده من علم أهل الكتاب شيء كثير وحديثه فى الصحيحين عن أخيه همام . كان ثقة واسع العلم (انظر تذكرة الحفاظ للذهبى (١ / ١٠٠) .

قال : لأن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم لايجوز أن يسحر ، فإنه يكون تصديقاً لقول الكفار ﴿ **إن تتبعون إلا رجلا مسحورا** ﴾[٩٧]، قالوا : وهذا كما قال فرعون لموسى ﴿ **إنى لأظنك ياموسى مسحوراً** ﴾[٩٨]، وكما قال قوم صالح له ﴿ **إنما أنت من المسحرين** ﴾[٩٩]، وكما قال قوم شعيب له ﴿ **إنما أنت من المسحرين** ﴾[١٠٠]، قالوا : فالأنبياء لا يجوز عليهم أن يسحروا ، فإن ذلك ينافى حماية الله لهم ، وعصمتهم من الشياطين .

وهذا الذى قاله هؤلاء مردود عند أهل العلم . فإن هشاماً من أوثق الناس وأعلمهم ، ولم يقدح فيه أحد من الأئمة بما يوجب رد حديثه ، فما للمتكلمين وما لهذا الشأن ؟ وقد رواه غير هشام عن عائشة . وقد اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيح هذا الحديث . ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة واحدة . والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقهاء . وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله وأيامه من المتكلمين .

قال أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد بن حبان عن زيد بن أرقم قال : « سحر النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم رجل من اليهود ، فاشتكى لذلك أياما . قال : فأتاه جبريل فقال : إن رجلا من اليهود سحرك . وعقد لذلك عقداً . فأرسل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عليا ، فاستخرجها ، فجاء بها ، فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة . فقام رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كأنما نشط من عقال . فما ذكر ذلك لليهودى . ولا رآه فى وجه قط »[١٠١].

---

(٩٧) سورة (الإسراء) الآية رقم (٤٧) ، سورة (الفرقان) الآية رقم (٨) .

(٩٨) سورة (الإسراء) الآية رقم (١٠١) .

(٩٩) سورة (الشعراء) الآية رقم (١٥٣) .

(١٠٠) سورة (الشعراء) الآية رقم (١٨٥)

(١٠١) كتاب الطب – باب فى الرجل يسحر ويسم فيعالج رقم (٣٥٦٩) .

وقال ابن عباس وعائشة : « كان غلام من اليهود يخدم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فدنت إليه اليهود ، فلم يزالوا حتى أخذ مشاطة رأس النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وعدة أسنان من مشطه . فأعطاها اليهود ، فسحروه فيها وتولى ذلك لبيد بن الأعصم ، رجل من اليهود . فنزلت هاتان السورتان فيه » .

قال البغوى : وقيل « كانت مغروزة بالأبر ، فأنزل الله عز وجل هاتين السورتين ، وهما أحد عشر آية : سورة الفلق خمس آيات ، وسورة الناس ست آيات . فكلما قرأ آية انحلت عقدة ، حتى انحلت العقد كلها ، فقام النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم كأنما أنشط من عقال »[١٠٢] قال : وروى أنه لبث فيه ستة أشهر ، واشتد عليه ثلاثة أيام ، فنزلت المعوذتان[١٠٣] .

قالوا : والسحر الذى أصابه كان مرضا من الأمراض عارضا شفاه الله منه ، ولا نقص فى ذلك ، ولا عيب بوجه ما ، فإن المرض يجوز على الأنبياء ، وكذلك الإغماء فقد أغمى عليه صلى الله عليه وعلى آله وسلم فى مرضه ، ووقع حين انفكت قدمه وجحش شقه وهذا من البلاء ، الذى يزيده الله به رفعة فى درجات ونيل كرامته . وأشد الناس بلاء الأنبياء . فابتلوا من أممهم بما ابتلوا به من القتل والضرب والشتم والحبس ، فليس ببدع أن يبتلى النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم من بعض أعدائه بنوع من السحر ، كما ابتلى بالذى رماه فشجه ، وابتلى بالذى ألقى على ظهره السلا وهو ساجد ، وغير ذلك . فلا نقص عليهم ، ولا عار فى ذلك ، بل هذا من كمالهم ، وعلو درجاتهم عند الله .

قالوا : وقد ثبت فى الصحيح عن أبى سعيد الخدرى : « أن جبريل أتى النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال : يامحمد اشتكيت ؟ فقال « **نعم** » . فقال . باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك ،

---

(١٠٢) ابن كثير فى (تفسير سورة الفلق) جـ٤ / ٥٧٤ .

(١٠٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٦ / ٦٣) من حديث عائشة (رضى الله عنها) .

بسم الله أرقيك »[١٠٤] فعوذه جبريل من شر كل نفس وعين حاسد لما اشتكى . فدل على أن هذا التعويذ مزيل لشكايته صلى الله عليه وعلى آله وسلم وإلا فلا يعوذه من شيء وشكايته من غيره .

وقالوا : وأما الآيات التى استدللتم بها فلا حجة لكم فيها .

أما قوله تعالى عن الكفار : إنهم قالوا ﴿ **إن تتبعون إلا رجلا مسحورا** ﴾[١٠٥] وقول قوم صالح وشعيب لهما ﴿ **إنما أنت من المسحرين** ﴾[١٠٦] فقيل : المراد به من له سحر ، وهى الرئة ، أى أنه بشر مثلهم يأكل ويشرب ليس بملك ، وليس المراد به السحر . وهذا جواب غير مرضى وهو فى غاية البعد ، فإن الكفار لم يكونوا يعبرون عن البشر بمسحور ، ولا يعرف هذا فى لغة من اللغات . وحيث أرادوا هذا المعنى أتوا بصريح لفظ البشر ، فقالوا : ﴿ **ما أنتم إلا بشر مثلنا** ﴾[١٠٧] ، و ﴿ **أنؤمن لبشرين مثلنا** ﴾[١٠٨] و ﴿ **أبعث الله بشراً رسولاً** ﴾[١٠٩] ، وأما المسحور فلم يريدوا به السحر وهو الرئة ، وأى مناسبة لذكر الرئة فى هذا الموضع ؟

ثم كيف يقول فرعون لموسى ﴿ **إنى لأظنك ياموسى مسحوراً** ﴾[١١٠] ؟ أفتراه ما علم أن له سحرا وأنه بشر ؟ ثم كيف يجيبه موسى بقوله : ﴿ **وإنى لأظنك يافرعون مثبورا** ﴾[١١١] ، ولو أراد بالمسحور أنه بشر لصدقه موسى وقال :

---

(١٠٤) رواه مسلم فى كتاب (السلام) باب (الطب والمرض والرقى) برقم (٢١٨٥) وأحمد فى مسنده (٣ – ٢٨ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٧٥) ، (٥ – ٣٢٣)

(١٠٥) سورة (الإسراء) الآية رقم (٤٧) ، و (الفرقان) رقم (٨) .

(١٠٦) سورة (الشعراء) الآية رقم (١٥٣) .

(١٠٧) سورة (يسٓ) الآية رقم (١٥) .

(١٠٨) سورة (المؤمنون) الآية رقم (٤٧) .

(١٠٩) سورة (الإسراء) الآية رقم (٩٤) .

(١١٠) سورة (الإسراء) الآية رقم (١٠١) .

(١١١) سورة (الإسراء) الآية رقم (١٠٢) .

نعم ، أنا بشر أرسلني الله إليك كما قالت الرسل لقومهم لما قالوا لهم : ﴿ **إن أنتم إلا بشر مثلنا** ﴾[(١١٢)] ، فقالوا ﴿ **إن نحن إلا بشر مثلكم** ﴾[(١١٣)] ، ولم ينكروا ذلك . فهذا الجواب فى غاية الضعف .

وأجابت طائفة منهم ابن جرير وغيره ، بأن المسحور هنا هو معلم السحر الذى قد علمه إياه غيره فالمسحور عنده بمعنى ساحر أى عالم بالسحر . وهذا جيد إن ساعدت علية اللغة وهو أن من علم السحر يقال له مسحور ، ولا يكاد هذا يعرف فى الاستعمال ، ولا فى اللغة ، وإنما المسحور من سحره غيره ، كالمطبوب والمضروب والمقتول وبابه . وأما من علم السحر فإنه يقال له ساحر ، بمعنى أنه عالم بالسحر ، وإن لم يسحر غيره . كما قال قوم فرعون لموسى : ﴿ **إن هذا لساحر عليم** ﴾[(١١٤)] ، ففرعون قذفه بكونه مسحورا ، وقومه قذفوه بكونه ساحرا .

فالصواب هو الجواب الثالث ، وهو جواب صاحب الكشاف وغيره ، أن المسحور على بابه : وهو من سُحر حتى جُن . فقال : مسحور مثل مجنون ، أى زائل العقل ، لايعقل مايقول . فإن المسحور الذى لا يتبع هو الذى فسد عقله ، بحيث لايدرى ما يقول ، فهو كالمجنون . ولهذا قالوا فيه ﴿ **معلم مجنون** ﴾[(١١٥)] ،

فأما من أصيب فى بدنه بمرض من الأمراض يصاب به الناس ، فإنه لايمنع ذلك من اتباعه . وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان ، وإنما قذفوهم بما يحذرون به سفاءهم من اتباعهم ، وهو أنهم قد سحروا حتى صاروا لا يعلمون ما يقولون بمنزلة المجانين .

---

(١١٢) سورة (إبراهيم) الآية رقم (١٠)

(١١٣) سورة (إبراهيم) الآية رقم (١١)

(١١٤) سورة (الأعراف) الآية رقم (١٠٩)

(١١٥) سورة (الدخان) الآية رقم (١٤)

ولهذا قال تعالى : ﴿ **انظر كيف ضربوا لك الأمثال ؟ فضلوا . فلا يستطيعون سبيلا** ﴾[116] ، مثلوك بالشاعر مرة ، والساحر أخرى ، والمجنون مـرة ، والمسحور أخرى . فضلُّوا فى جميع ذلك ضلال من يطلب فى تيهه وتحيره طريقا يسلكه فلا يقدر عليه ، فإنه أى طريق أخذها فهى طريق ضلال وحيرة فهو متحير فى أمره لايهتدى سبيلا ، ولا يقدر على سلوكها ، فهكذا حال أعداء رسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم معه ، حتى ضربوا له أمثالا برأه الله منها ، وهو أبعد خلق الله عنها ، وقد علم كل عاقل أنها كذب وافتراء وبهتان .

وأما قولكم : إن سحر الأنبياء ينافى حماية الله لهم فإنه سبحانه كما يحميهم ويصونهم ويحفظهم ويتولاهم ، فيبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم ليستوجبوا كمال كرامته ، وليتسلى بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أوذوا من الناس فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء ، صبروا ورضوا وتأسوا بهم ، ولتمتلىء صاع الكفار فيستوجبون ما أعد لهم من النكال العاجل والعقوبة الآجلة ، فيمحقهم بسبب بغيهم وعدوانهم ، فيعجل تطهير الأرض منهم ، فهذا من بعض حكمته تعالى فى ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم . وله الحكمة البالغة والنعمة السابقة ، لا إله غيره ، ولا رب سواه .

فصـــل

تأثير السحر وأن له حقيقة

وقد دل قوله : ﴿ **ومن شر النفاثات فى العقد** ﴾[117] وحديث عائشة المذكور على تأثير السحر ، وأن له حقيقة .

وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم . وقالوا : إنه لا

---

(١١٦) سورة (الإسراء) الآية رقم (٤٨) ، (الفرقان) رقم (٩) .

(١١٧) سورة (الفلق) رقم الآية (٤)

تأثير للسحر البتة لا فى مرض ولا قتل ، ولا حل ولا عقد . وقالوا : إنما ذلك تخييل لأعين الناظرين ، لا حقيقة له سوى ذلك .

وهذا خلاف ماتواترت به الآثار عن الصحابة والسلف ، واتفق عليه الفقهاء وأهل التفسير والحديث وما يعرف عامة العقلاء . والسحر الذى يؤثر مرضا وثقلا وعقدا وحبا وبغضا وتزيفا وغير ذلك من الآثار موجود تعرفه عامة الناس . وكثير منهم قد علمه ذوقا بما أصيب به منه ، وقوله تعالى : ﴿ **ومن شر النفاثات فى العقد** ﴾[117*] دليل على أن هذا النفث يضر المسحور فى حال غيبته عنه ، ولو كان الضرر لايحصل إلا بمباشرة البدن ظاهراً كما يقوله هؤلاء ، لم يكن للنفث ولا للنفاثات شر يستعاذ منه . وأيضا فإذا جاز على الساحر أن يسحر جميع أعين الناظرين مع كثرتهم حتى يروا الشيء بخلاف ماهو به ، مع أن هذا تغيير فى إحساسهم ، فما الذى يحيل تأثيره فى تغيير بعض أعراضهم وقواهم وطباعهم ؟ وما الفرق بين التغيير الواقع فى الرؤية والتغيير الواقع فى صفة أخرى من صفات النفس والبدن ؟ فإذا غير إحساسه حتى صار يرى الساكن متحركا ، والمتصل منفصلا . والميت حيا ، فما المحيل لأن يغير صفات نفسه حتى يجعل المحبوب إليه بغيضا ، والبغيض محبوبا وغير ذلك من التأثيرات ؟

وقد قال تعالى عن سحرة فرعون أنهم ﴿ **سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم** ﴾[118]، فبين سبحانه أن أعينهم سُحرت وذلك إما أن يكون لتغيير حصل فى المرئى وهو الحبال والعصى ، مثل أن يكون السحرة استغاثت بأرواح حرّكتها وهى الشياطين ، فظنوا أنها تحركت بأنفسها ، وهذا كما إذا جر من لاتراه حصيراً أو بساطاً فترى الحصير والبساط ينجر ، ولا ترى الجار له ، مع أنه هو الذى يجره فهكذا حال الحبال والعصى التبستها الشياطين فقلبتها كتقليب الحية ، فظن الرائى أنها تقلبت بأنفسها ، والشياطين هم الذين يقلبونها .

وأما أن يكون التغيير حدث فى الرائى حتى رأى الحبال والعصى تتحرك وهى

(117*)سورة (الفلق) رقم الآية (٤)

(118) سورة (الأعراف) الآية رقم (١١٦)

ساكنة فى أنفسها ولا ريب أن الساحر يفعل هذا وهذا ، فتارة يتصرف فى نفس الرائى وإحساسه ، حتى يرى الشىء بخلاف ما هو به ، وتارة يتصرف فى المرئى باستعانته بالأرواح الشيطانية حتى يتصرف فيها .

وأما ما يقوله المنكرون من أنهم فعلوا فى الحبال والعصى ما أوجب حركتها ومشيها مثل الزئبق وغيره حتى سعت فهذا باطل من وجوه كثيرة فإنه لو كان كذلك لم يكن هذا خيالا بل حركة حقيقية ، ولم يكن ذلك سحراً لأعين الناس ولا يسمى ذلك سحراً ، بل صناعة من الصناعات المشتركة . وقد قال تعالى : ﴿ **فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى** ﴾[١١٩] ، ولو كانت تحركت بنوع حيلة - كما يقوله المنكرون - لم يكن هذا من السحر فى شىء ومثل هذا لا يخفى . وأيضاً لو كان ذلك بحيلة - كما قال هؤلاء - لكان طريق إبطالها إخراج ما فيها من الزئبق وبيان ذلك المحال ولم يحتج إلى إلقاء العصا لا بتلاعها ، وأيضاً فمثل هذه الحيلة لايحتاج فيها إلى الاستعانة بالسحرة ، بل يكفى فيها حذاق الصناع ، ولا يحتاج فى ذلك إلى تعظيم فرعون للسحرة وخضوعه لهم ووعدهم بالتقريب والجزاء . وأيضاً فإنه لايقال فى ذلك ﴿ **إنه لكبيركم الذى علمكم السحر** ﴾[١٢٠] ، فإن الصناعات يشترك الناس فى تعلمها وتعليمها وبالجملة فبطلان هذا أظهر من أن يتكلف رده ، فلنرجع إلى المقصود .

فصـــل

الاستعاذة من شر الحاسد إذا حسد

الشر الرابع : شر الحاسد إذا حسد . وقد دل القرآن والسنة على أن نفس حسد الحاسد يؤذى المحسود ، فنفس حسده شر متصل بالمحسود من نفسه وعينه ، وإن لم يؤذه بيده ولا لسانه ، فإن الله تعالى قال : ﴿ **ومن شر حاسد**

---

(١١٩) سورة (طه) الآية رقم (٦٦)

(١٢٠) سورة (طه) الآية رقم (٧١) ، سورة (الشعراء) الآية (٤٩)

إذا حسد ﴾[121] فحقق الشر منه عند صدور الحسد ، والقرآن ليس فيه لفظة مهملة .

ومعلوم أن الحاسد لايسمى حاسداً إلا إذا قام به الحسد ، كالضارب والشاتم والقاتل ونحو ذلك . ولكن قد يكون الرجل فى طبعه الحسد وهو غافل عن المحسود لاه عنه ، فإذا خطر على ذكره وقلبه انبعثت نار الحسد من قلبه إليه وتوجهت إليه سهام الحسد من قلبه ، فيتأذى المحسود بمجرد ذلك فإن لم يستعذ بالله ويتحصن به ويكون له أوراد من الأذكار والدعوات والتوجه إلى الله والإقبال عليه بحيث يدفع عنه من شره بمقدار توجهه وإقباله على الله ، وإلا ناله شر الحاسد ولا بد . فقوله تعالى ﴿ **إذا حسد** ﴾ بيان لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحسد بالفعل .

وقد تقدم فى حديث أبى سعيد الصحيح رقية جبريل النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم وفيها « بسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس ، أو عين حاسد ، الله يشفيك »[122] فهذا فيه الاستعاذة من شر عين الحاسد . ومعلوم أن عينه لاتؤثر بمجردها إذ لو نظر إليه نظر لاه ساه عنه كما ينظر إلى الأرض والجبل وغيره لم يؤثر فيه شيئاً ، وإنما إذا نظر إليه نظر من قد تكيفت نفسه الخبيثة وانسمت واحتدت فصارت نفسا غضبية خبيثة حاسدة ، أثرت بها تلك النظرة . فأثرت فى المحسود تأثيراً بحسب صفة ضعفه ، وقوة نفس الحاسد . فربما أعطيه وأملكه بمنزلة من فوّق سهما نحو رجل عريان ، فأصاب منه مقتلا وربما صرعه وأمرضه والتجارب عند الخاصة والعامة بهذا أكثر من أن تذكر .

وهذه العين إنما تأثيرها بواسطة النفس الخبيثة . وهى فى ذلك بمنزلة الحية التى إنما يؤثر سمها إذا عضت واحتدت ، فإنها تتكيف بكيفية الغضب والخبث فتحدث فيها تلك الكيفية السم ، فتؤثر فى اللديغ وربما قويت تلك الكيفية

---

(١٢١) سورة (الفلق) الآية رقم (٥)

(١٢٢) سبق تخريجه فى (١٠٤) فارجع إليه

واشتدت فى نوع منها حتى تؤثر بمجرد نظرة ، فتطمس البصر ، وتسقط الحبل ، كما ذكره النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم فى الأبتر وذى الطفيتين منها ، فقال « **اقتلوهما فإنهما يطمسان البصر ويسقطان الحبل** »[١٢٣] وإذا كان هذا فى الحيات فما الظن فى النفوس الشريرة الغضبية الحاسدة ، إذا تكيفت بكيفيتها الغضبية ، وانسمت وتوجهت إلى المحسود بكيفيتها ؟ فلله كم من قتيل وكم من سليب وكم من معافى عاد مضنى على فراشه يقول طبيبه : لا أعلم داءه ما هو ؟ ليس هذا الداء من علم الطبائع ، هذا من علم الأرواح وصفاتها وكيفياتها ومعرفة تأثيراتها فى الأجسام والطبائع ، وانفعال الأجسام عنها .

وهذا علم لايعرفه إلا خواص الناس والمحجوبون منكرون له ، ولا يعلم تأثير ذلك وارتباطه بالطبيعة وانفعالها وعنه إلا من له نصيب من ذوقه ، وهل الأجسام إلا كالخشب الملقى ؟ وهل الانفعال والتأثر ، وحدوث ما يحدث عنها من الأفعال العجيبة والآثار الغريبة إلا من الأرواح ؟ والأجسام آلتها بمنزلة آلة الصانع ، فالصنعة فى الحقيقة له ، والآلات وسائط فى وصول أثره إلى الصنع . ومن له أدنى فطنة وتأمل أحوال العالم ولطفت روحه وشاهدت أحوال الأرواح وتأثيراتها وتحريكها الأجسام وانفعالها عنها ، كل ذلك بتقدير العزيز العليم . خالق الأسباب والمسببات ، رأى عجائب فى الكون ، وآيات دالة على وحدانية الله وعظمته وربوبيته ، وأن ثَم عالما آخر تجرى عليه أحكام أخر ، تشهد آثارها وأسبابها غيب عن الأبصار . فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين ، الذى أتقن ماصنع وأحسن كل شى خلقه .

---

(١٢٣) رواه البخارى فى كتاب (بدء الخلق) باب قوله تعالى (**وبث فيها من كل دابة**) رقم (٣٢٩٧) جـ٦ وباب (خير مال المسلم غنم يتبع بها شغف الجبال) رقم (٣٣٠٨) انظر (فتح البارى) ومسلم (٢٢٣٣) فى كتاب (السلام) باب (قتل الحيات وغيرها) والإمام أحمد فى مسنده (٢ - ١٢١) ، (٣ - ٤٥٢) ، (٦ - ٢٣٠) ، وابن ماجه فى كتاب (الطب) باب (قتل ذى الطفيتين) رقم (٣٥٣٥) جـ٢ .
=

ولا نسبة لعالم الأجسام إلى عالم الأرواح ، بل هو أعظم وأوسع ، وعجائبه أبهر وآياته أعجب . وتأمل هذا الهيكل الإنسانى إذا فارقته الروح ، كيف يصير بمنزلة الخشبة أو القطعة من اللحم ؟ فأين ذهبت تلك العلوم والمعارف والعقل ، وتلك الصنائع الغريبة ، وتلك الأفعال العجيبة ، وتلك الأفكار والتدبيرات ! كيف ذهبت كلها مع الروح ، وبقى الهيكل سواء هو والتراب ؟ وهل يخاطبك من الإنسان أو يراك أو يحبك أو يواليك أو يعاديك ، ويخف عليك ويثقل ، ويؤنسك ويوحشك ، إلا ذلك الأمر الذى وراء الهيكل المشاهد بالبصر ؟ فرب رجل عظيم الهيولى كبير الجثة ، خفيف على قلبك ، حلو عندك ، وآخر لطيف الخلقة صغير الجثة ، أثقل على قلبك من جبل . وما ذاك إلا للطافة روح ذاك وخفتها وحلاوتها . وكثافة هذا وغلظ روحه ومرارتها وبالجملة فالعلق والوصل التى بين الأشخاص والمنافرات والبعد وإنما هى للأرواح أصلا والأشباح تبعاً .

فصل

الكلام على الحسد والعين والسحر ، والفرق بين كل منها

والعاين والحاسد يشتركان فى شىء ، ويفترقان فى شىء . فيشتركان فى أن كل واحد منهما تتكيف نفسه ، وتتوجه نحو من يريد أذاه ، فالعائن تتكيف نفسه عند مقابلة المعين ومعاينته ، والحاسد يحصل له ذلك عند غيبة المحسود وحضوره أيضا .

= **فائدة :** -
قال ابن عبد البر : يقال : إن ذا الطفيتين جنس من الحيات يكون على ظهره خطان أبيضان « ا هـ» .
والأبتر : -
هو مقطوع الذنب قال الداودى : هى الأفعى التى تكون قدر شبر أو أكبر قليلاً . زاد النضر بن شميل أنه أزرق اللون لاتنظر إليه حامل إلا ألقت . وقيل الأبتر : الحية القصيرة الذنب (انظر فتح البارى تحت حديث رقم ٣٢٩٧) .

ويفترقان فى أن العائن قد يصيب من لايحسده من جماد أو حيوان أو زرع أو مال ، وإن كان لا يكاد ينفك من حسد صاحبه . وربما أصابت عينه نفسه ، فإن رؤيته للشيء رؤية تعجب وتحديق مع تكيف نفسه بتلك الكيفية ، تؤثر فى المعين .

وقد قال غير واحد من المفسرين فى قوله تعالى : ﴿ **وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر** ﴾[١٢٤] ، إنه الإصابة بالعين ، أرادوا أن يصيبوا بها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فنظر إليه قوم من العائنين وقالوا : مارإينا مثله ولا مثل حجته . وكان طائفة منهم تمر به الناقة والبقرة السمينه فيعينها ، ثم يقول لخادمه : خذ المكتل والدرهم وائتنا بشيء من لحمها ، فما تبرح حتى تقع فتنحر .

وقال الكلبى : كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل ، ثم يرفع جانب خبائه فتمر به الإبل ، فيقول : « لم أر كاليوم إبلا ولا غنما أحسن من هذه » : فما تذهب إلا قليلا حتى يسقط منها طائفة . فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالعين ، ويفعل به كفعله فى غيره ، فعصم الله رسوله وحفظه ، وأنزل عليه : ﴿ **وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم** ﴾[١٢٥] هذا قول طائفة .

وقالت طائفة أخرى منهم ابن قتيبة : ليس المراد أنهم يصيبونك بالعين كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه ، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء يكاد يسقطك . قال الزجاج : يعنى من شدة العداوة يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك : وهذا مستعمل فى الكلام ، يقول القائل : نظر إلى نظراً كاد يصرعنى . قال : ويدل على صحة هذا المعنى أنه قرن هذا النظر بسماع القرآن ، وهم كانوا يكرهون ذلك أشد الكراهة ، فيحدون إليه النظر بالبغضاء .

---

(١٢٤) (١٢٥) سورة (القلم) الآية رقم (٥١) .

قلت : النظر الذى يؤثر فى المنظور قد يكون سببه شدة العداوة والحسد ، فيوثر نظره فيه كما تؤثر نفسه بالحسد ، ويقوى تأثير النفس عند المقابلة ، فإن العدو إذا غاب عن عدوه قد يشغل نفسه عنه ، فإذا عاينه قُبلا اجتمعت الهمة عليه ، وتوجهت النفس بكليتها إليه ، فيتأثر بنظره ، حتى إن من الناس من يسقط ، ومنهم من يحم ، ومنهم من يحمل إلى بيته . وقد شاهد الناس من ذلك كثيرا .

وقد يكون سببه الإعجاب ، وهو الذى يسمونه بإصابة العين ، وهو أن الناظر يرى الشيء رؤية إعجاب به أو استعظام ، فتتكيف روحه بكيفية خاصة تؤثر فى المعين . وهذا هو الذى يعرفه الناس من رؤية المعين ، فإنهم يستحسنون الشيء ويعجبون منه فيصاب بذلك .

قال عبد الرزاق عن معمر عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم « **العين حق** » ونهى عن الوشم[١٢٦] .

وروى سفيان عن عمرو بن دينار عن عروة بن عامر عن عبيد بن رفاعة أن أسماء بنت عميس قالت : يارسول الله : إن بنى جعفر تصيبهم العين أفنسترقى لهم ؟ قال : « **نعم فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين** »[١٢٧] .

فالكفار كانوا ينظرون إليه نظر حاسد شديد العداوة ، فهو نظر يكاد يزلقه

---

(١٢٦) رواه البخارى فى كتاب (الطب) باب (العين حق) برقم (٥٧٤٠) حـ١٠
وفى كتاب (اللباس) باب (الواشمة) برقم (٥٩٤٤) حـ١٠
ومسلم فى كتاب (السلام) باب (الطب والمرض والرقى) برقم (٢١٨٧)
وأحمد فى مسنده (٢ / ٢٨٩ ، ٣١٩) ، (٤ - ٦٧) ، (٥ - ٣٧٩)
وابن ماجة من حديث أبى هريرة بلفظ (العين حق) فى كتاب (الطب) باب (العين) برقم (٣٥٠٧)

(١٢٧) رواه الترمذى (٢٠٥٩) وأحمد فى مسنده (٦ / ٤٣٨)
وابن ماجه فى كتاب (الطب) باب (من استرقى من العين) رقم (٣٥١٠) جـ٢

لولا حفظ الله وعصمته ، فهذا أشد من نظر العائن ، بل هو جنس من نظر العائن . فمن قال (إنه من الإصابة بالعين) أراد هذا المعنى ، ومن قال (ليس به) أراد أن نظرهم لم يكن نظر استحسان وإعجاب فالقرآن حق .

وقد روى الترمذى من حديث أبى سعيد « أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يتعوذ من عين الإنسان »[١٢٨] فلولا أن العين شر لم يتعوذ منها .

وفى الترمذى من حديث على بن المبارك عن يحيى بن أبى كثير ، حدثنى حية ابن حابس التميمى ، حدثنى أبى أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول : « **لاشىء فى الهام والعين حق** »[١٢٩]

وفيه أيضا من حديث وُهيب عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول : « **لو كان شىء سابق القدر لسبقته العين وإذا استُغسلتم فاغسلوا** »[١٣٠] وفى الباب عن عبد الله بن عمرو ، وهذا حديث صحيح .

والمقصود أن العائن حاسد خاص ، وهو أضر من الحاسد ، ولهذا - والله أعلم - إنما جاء فى السورة ذكر الحاسد العائن لأنه أعم ، فكل عائن حاسد ولا بد ، وليس كل حاسد عائنا . فإذا استعاذ من شر الحاسد دخل فيه العائن . وهذا من شمول القرآن وإعجازه وبلاغته .

---

(١٢٨) سبق تخريجه برقم (٦) فارجع إليه

(١٢٩) أخرجه أحمد فى مسنده (٤ / ٦٧) (٥ / ٧٠ ، ٣٧٩) قال الهيثمى فى « مجمع الزوائد » (٥ / ١٠٥ ، ١٠٦) رواه الترمذى خلا قوله « وأصدق الطير الفأل » - رواه البزار وأبويعلى وفيه وجيه بن حابس لم يرو عنه غير يحيى ، وبقية رجاله ثقات ، وعن أبى أمامه أن النبى ﷺ قال : « **لاشىء فى الهام والعين حق وأصدق الطير الفأل** » رواه الطبرانى وفيه عفير بن معدان وهو ضعيف .

(١٣٠) أخرجه عبد الرزاق فى « المصنف » (١٩٧٧٠) وإسناده صحيح لكنه مرسل وقد وصله مسلم فى « صحيحه » (٢١٨٨) من طريق وهيب عن ابن طاووس عن أبيه ، عن ابن عباس ، وأخرجه أحمد فى « مسنده » (٦ / ٤٣٨) .

وأصل الحسد هو بغض نعمة الله على المحسود وتمنى زوالها ، فالحاسد عدو النعم ، وهذا الشر هو من نفسه وطبعها ، ليس هو شيئاً اكتسبه من غيرها ، بل هو من خبثها وشرها ، بخلاف السحر : فإنه إنما يكون باكتساب أمور أخرى ، واستعانة بالأرواح الشيطانية . فلهذا – والله أعلم – قرن فى السورة بين شر الحاسد وشر الساحر ، لأن الاستعاذة من شر هذين تعم كل شر يأتى من شياطين الإنس والجن ، فالحسد من شياطين الإنس والسحر من النوعين . وبقى قسم ينفرد به شياطين الجن ، وهو الوسوسة فى القلب فذكره فى السورة الأخرى ، كما سيأتى الكلام عليها إن شاء الله .

فالحاسد والساحر يؤذيان المحسود والمسحور بلا عمل منه بل هو أذى من أمر خارج عنه ، ففرق بينهما فى الذكر فى سورة الفلق . والوسواس إنما يؤذى العبد من داخله بواسطة مساكنته له وقبوله منه . ولهذا يعاقب العبد على الشر الذى يؤذيه به الشيطان من الوساوس التى تقترن بها الأفعال والعزم الجازم ، لأن ذلك بسعيه وإرادته ، بخلاف شر الحاسد والساحر . فإنه لايعاقب عليه ، إذ لا يضاف إلى كسبه ولا إرادته . فلهذا أفرد شر الشيطان فى سورة ، وقرن بين شر الساحر والحاسد فى سورة .

وكثيرا ما يجتمع فى القرآن الحسد والسحر للمناسبة . ولهذا اليهود أسحر الناس وأحسدهم ، فإنهم – لشدة خبثهم – فيهم من السحر والحسد ماليس فى غيرهم ، وقد وصفهم الله فى كتابه بهذا وهذا . فقال : ﴿ **واتّبعوا ماتتْلوا الشياطين على مُلك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق و لبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون** ﴾[١٣١]

---

(١٣١) سورة (البقرة) الآية رقم (١٠٢)

والكلام على أسرار هذه الآية وأحكامها ، وما تضمنته من القواعد والرد على من أنكر السحر ، وما تضمنته من الفرقان بين السحر وبين المعجزات الذى أنكره من أنكر السحر خشية الالتباس ، وقد تضمنت الآية أعظم الفرقان بينهما فى موضع غير هذا إذ المقصود الكلام على أسرار هاتين السورتين وشدة حاجة الخلق إليها ، وأنه لا يقوم غيرهما مقامهما .

وأما وصفهم بالحسد فكثير فى القرآن ، كقوله تعالى ﴿ **أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله** ﴾(١٣٢) ، وفى قوله : ﴿ **ودَّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردُّونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق** ﴾(١٣٣)

والشيطان يقارن الساحر والحاسد ويحادثهما ويصاحبهما ، ولكن الحاسد تعينه الشياطين بلا استدعاء منه للشيطان لأن الحاسد شبيه بإبليس وهو فى الحقيقة من أتباعه ، لأنه يطلب ما يحبه الشيطان من فساد الناس وزوال نعم الله عنهم ، كما أن إبليس حسد آدم لشرفه وفضله وأبى أن يسجد له حسداً . فالحاسد من جند إبليس .

وأما الساحر فهو يطلب من الشيطان أن يعينه ويستعينه ، وربما يعبده من دون الله حتى يقضى له حاجته وربما يسجد له . وفى كتب السحر و « السر المكتوم » (للوازى) من هذه عجائب . ولهذا كلما كان الساحر أكفر وأخبث وأشد معاداة لله ورسوله ولعباده المؤمنين كان سحره أقوى وأنفذ ، وكان سحر عباد الأصنام أقوى من سحر أهل الكتاب ، وسحر اليهود أقوى من سحر المنتسبين إلى الإسلام ، وهم الذين سحروا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم

وفى الموطأ عن كعب قال « كلمات أحفظهن من التوراة ، لولاها لجعلتنى

---

(١٣٢) سورة (النساء) الآية رقم (٥٤) .

(١٣٣) سورة (البقرة) الآية رقم (١٠٩) .

يهود حماراً : « أعوذ بوجه الله العظيم الذى لاشىء أعظم منه ، وبكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر ، وبأسماء الله الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم ، من شر ما خلق وذرأ وبرأ »[١٣٤] .

والمقصود أن الساحر والحاسد كل منهما قصده الشر ، لكن الحاسد بطبعه ونفسه وبغضه للمحسود ، والشيطان يقترن به ويعينه ويزين له حسده ويأمره بموجبه ، والساحر بعلمه وكسبه وشِركه واستعانته بالشياطين .

فصــــل

بيان الشرور الأربعة واشتمال السحر على عبادة الشيطان

وقوله ﴿ **ومن شر حاسد إذا حسد** ﴾[١٣٥] يعم الحاسد من الجن والإنس ، فإن الشيطان وحزبه يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله ، كما حسد إبليس أبانا آدم ، وهو عدو لذريته ، كما قال تعالى ﴿ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا** ﴾[١٣٦] ، ولكن الوسواس أخص بشياطين الجن ، والحسد أخص بشياطين الإنس ، والوسواس يعمهما كما سيأتى بيانهما ، والحسد يعمهما أيضاً . فكلا الشياطين حاسد موسوس . فالاستعاذة من شر الحاسد تتناولهما جميعاً . فقد اشتملت السورة على الاستعاذة من كل شر فى العالم ، وتضمنت شروراً أربعة يستعاذ منها : شراً عاما وهو شر ما خلق ، وشر الغاسق إذا وقب . فهذان نوعان ، ثم ذكر شر الساحر والحاسد ، وهى نوعان أيضاً . لأنهما من شر النفس الشريرة .

وأحدهما يستعين بالشيطان ويعبده وهو الساحر ، وقلما يتأتى السحر بدون

---

(١٣٤) رواه مالك فى الموطأ بلفظ أوله (لولا كلمات) وساق الحديث فى كتاب (الشعر) باب (مايؤمر به من التعوذ) جـ٢ / ٩٥١ ، ٩٥٢ .

(١٣٥) سورة (الفلق) الآية رقم (٥) .

(١٣٦) سورة (فاطر) الآية رقم (٦) .

نوع عبادة للشيطان وتقرب إليه ، إما بذبح باسمه أو بذبح يقصد به هو ، فيكون ذبحاً لغير الله ، وبغير ذلك من أنواع الشرك والفسوق . والساحر وإن لم يسم هذا عبادة للشيطان فهو عبادة له ، وإن سماه بما سماه به ، فإن الشرك والكفر هو شرك وكفر لحقيقته ومعناه ، لا لاسمه ولفظه .

فمن سجد لمخلوق وقال « ليس هذا بسجود له ، هذا خضوع ، وتقبيل الأرض بالجبهة كما أقبلها بالفم ، أو هذا إكرام » لم يخرج بهذه الألفاظ عن كونه سجوداً لغير الله فليسمه بما شاء .

وكذلك من ذبح للشيطان ودعاه استعاذ به ، وتقرب إليه بما يحب ، فقد عبده وإن لم يسم ذلك عبادة ، بل يسميه استخداما ، وصدق ، هو استخدام من الشيطان له ، فيصير من خَدم الشيطان وعابديه ، وبذلك يخدمه الشيطان ، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة فإن الشيطان لايخضع ولا يعبده كما يفعل هو به . والمقصود أن هذا عبادة منه للشيطان وإنما سماه استخداماً . قال تعالى ﴿ **ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان ، أنه لكم عدو مبين** ﴾[137] ، وقال تعالى ﴿ **ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون * قالوا : سبحانك أنت وليُّنا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون** ﴾[138] ، فهؤلاء وأشباههم عباد الجن والشياطين ، وهم أولياؤهم فى الدنيا والآخرة ، ولبئس المولى ولبئس العشير .

فهذا أحد النوعين . والنوع الثانى من يعينه الشيطان ، وإن لم يستعن هو به ، وهو الحاسد لأنه نائبه وخليفته ، لأن كليهما عدو الله ومنغصها على عباده .

فصـــــل

بيان مراتب الحسد الثلاث ، وتضمن السورة دواءه الناجع

وتأمل تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله ﴿ **إذا حسد** ﴾ لأن الرجل قد يكون

---

(١٣٧) سورة (يَس) الآية رقم (٦٠)

(١٣٨) سورة (سبأ) الآيتان رقم (٤٠ ، ٤١)

عنده حسد ولكن يخفيه ، ولا يرتب عليه أذى بوجه ما ، لا بقلبه ولا بلسانه ولا بيده بل يجد فى قلبه شيئاً من ذلك ، ولا يعامل أخاه إلا بما يحب الله ، فهذا لا يكاد يخلو من أحد إلا من عصمه الله ، وقيل للحسن البصرى : أيحسد المؤمن ؟ قال : « ما أنساك لإخوة يوسف ! »

لكن الفرق بين القوة التى فى قلبه من ذلك وهو لايطيعها ولا يأتمر بها ، بل يعصيها طاعة لله ، وخوفا وحياء منه ، وإجلالا له أن يكره نعمه على عباده ، فيرى ذلك مخالفة لله ، وبغضا لما يحب الله ، ومحبة لما يبغضه . فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك ويلزمها بالدعاء للمحسود ، وتمنى زيادة الخير له بخلاف ما إذا حقق ذلك وحسده ، ورتب على حسده مقتضاه من الأذى بالقلب واللسان والجوارح . فهذا الحسد المذموم هذا كله حسد تمنى الزوال . وللحسد ثلاث مراتب : إحداها هذه .

والثانية : تمنى استصحاب عدم النعمة ، فهو يكره أن يحدث الله لعبده نعمة ، بل يحب أن يبقى على حاله من جهله أو فقره أو ضعفه أو شتات قلبه عن الله أو قلة دينه . فهو يتمنى دوام ماهو فيه من نقص وعيب ، فهذا حسد على شىء مقدر ، والأول حسد على شىء محقق . وكلاهما حاسد ، عدو نعمة الله وعدو عباده ، وممقوت عند الله تعالى وعند الناس . ولا يسود أبداً ولا يواسى ، فإن الناس لايسودون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم . فأما عدو نعمة الله عليهم فلا يسودونه باختيارهم أبداً إلا قهر يعدونه من البلاء والمصائب التى ابتلاهم الله بها ، فهم يبغضونه وهو يبغضهم .

والحسد الثالث : حسد الغبطة ، وهو تمنى أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن تزول النعمة عنه . فهذا لا بأس به ولا يعاب صاحبه ، بل هذا قريب من المنافسة . وقد قال تعالى ﴿ **وفى ذلك فليتنافس المتنافسون** ﴾[١٣٩]، وفى

---

(١٣٩) سورة (المطففين) الآية رقم (٢٦) .

الصحيح عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال : ﴿ **لاحسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا وسلطه على هَلَكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها الناس** ﴾[١٤٠] . فهذا حسد غبطة ، الحامل لصاحبه عليه كبر نفسه ، وحب خصال الخير ، والتشبه بأهلها ، والدخول فى جملتهم ، وأن يكون من سبَّاقهم وعليتهم ومصليهم لا من فساكلهم فتحدث له من هذه الهمة المنافسة والمسابقة والمسارعة ، مع محبته لمن يغبطه ، وتمنى دوام نعمة الله عليه . فهذا لا يدخل فى الآية بوجه ما .

فهذه السورة من أكبر أدوية الحسد . فإنها تتضمن التوكل على الله والالتجاء إليه والاستعاذة به من شر حاسد النعمة ، فهو مستعيذ بولى النعم ومولیها . كأنه يقول : يامن أولانى نعمته وأسداها إلىَّ أنا عائذ بك من شر من يريد أن يستلبها منى ويزيلها عنى : وهو حَسْب من توكل عليه ، وكافى من لجأ إليه ، وهو الذى يؤمن خوف الخائف ويجير المستجير ، وهو نعم المولى ونعم النصير . فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه ، تولاه وحفظه وحرسه وصانه . ومن خافه واتقاه أمَّنه مما يخاف ويحذر ، وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً . ويرزقه من حيث لايحتسب ، ومن يوكل على الله فهو حسبه** ﴾[١٤١] ، فلا تستبطىء نصره ورزقه وعافيته ، ﴿ **إن الله بالغ أمره** ﴾[١٤٢] و ﴿ **قد جعل الله لكل شىء قدراً** ﴾[١٤٣] لا يتقدم عنه ولا يتأخر . ومن لم يخفه أخافه من كل شىء ، وما خاف أحد غير الله إلا لنقص

---

(١٤٠) أخرجه البخارى فى كتاب (العلم) باب (الاغتباط فى العلم والحكمة) رقم (٧٣) حـ١ (انظر الفتح) ومسلم (٨١٦) وأحمد فى مسنده (١ – ٣٨٥ ، ٤٣٢) (٢ – ٩) وابن ماجه فى كتاب (الزهد) باب (الحسد) رقم (٤٢٠٨) حـ٢ والألبانى فى « صحيح الجامع » رقم (٧٣٦٥) . و الروايات كلها ليس فيها كلمة (الناس) .

(١٤١) سوة (الطلاق) الآيتان رقم (٢ ، ٣) .

(١٤٢) (١٤٣) سورة (الطلاق) الآية رقم (٣) .

خوفه من الله قال تعالى : ﴿ **فإذا قرأتَ القرآنَ فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون** ﴾[١٤٤]، وقال ﴿ **إنما ذلكم الشيطان يخوِّف أولياءه . فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾[١٤٥]، أى يخوفكم بأوليائه ويعظمهم فى صدوركم ، فلا تخافوهم ، وأفردونى بالمخافة أكفكم إياهم .

---

(١٤٤) سورة (النحل) الآيات رقم (٩٨ - ١٠٠) .

(١٤٥) سورة (آل عمران) الآية رقم (١٧٥) .

فصـــــل

الأسباب العشرة لدفع شر الحاسد

[الاستعاذة والتقوى والصبر والتوكل
والتخلى والإقبال والتوبة والصدقة والإحسان والتوحيد]

ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب :

أحدها : التعوذ بالله من شره والتحصن به واللجأ إليه ، وهو المقصود بهذه السورة . والله تعالى سميع لاستعاذته ، عليم بما بستعيذ منه ، والسمع هنا المراد به سمع الإجابة لا السمع العام . فهو مثل قوله « **سمع الله لمن حمده** »(١٤٦) ، وقول الخليل صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ﴿ **إن ربى لسميع الدعاء** ﴾(١٤٧) ومرة يقرنه بالعلم ، ومرة بالبصر ، لاقتضاء حال المستعيذ ذلك فإنه يستعيذ به من عدو يعلم أن الله يراه ، ويعلم كيده وشره . فأخبر الله تعالى هذا المستعيذ أنه سميع لاستعاذته أى مجيب عليم بكيد عدوه ، يراه ويبصره لينبسط أمل المستعيذ ويقبل بقلبه على الدعاء .

وتأمل حكمة القرآن كيف جاء فى الاستعاذة من الشيطان الذى نعلم وجوده ولا نراه بلفظ ﴿ **السميع العليم** ﴾ فى الأعراف وحم السجدة ، وجاءت

---

(١٤٦) أخرجه البخارى فى كتاب (الأذان) باب (رفع اليدين إذا كبر ، وإذا ركع ، وإذا رفع) رقم (٧٣٦) حـ٢ وأحمد فى مسنده (١ - ٣٣٣) (٢ - ١٨ ، ١٤٧) ، (٣ - ١٨ ، ٢٤٧) وابن ماجه فى كتاب (إقامة الصلاة والسنة فيها) بأرقام (٨٦٢ ، ٨٧٥ ، ٨٧٨ ، ١٠٦١ ، ١٢٦٣) حـ١ ومالك فى « الموطا » كتاب (القرآن) باب (ماجاء فى ذكر الله تعالى) حـ١ / ٢١٢ والهيثمى فى « مجمع الزوائد » (٢ / ١٢٤) .

(١٤٧) سورة (إبراهيم) الآية رقم (٣٩) .

الاستعاذة من شر الإنس الذين يؤنسون ويُرون بالأبصار بلفظ ﴿ **السميع البصير** ﴾[١٤٨] فى سورة حم المؤمن . فقال ﴿ **إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدروهم إلا كبر ماهم ببالغيه ، فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير** ﴾[١٤٩] ، لأن أفعال هؤلاء أفعال معاينة ترى بالبصر . وأما نزغ الشيطان فوساوس وخطرات يلقيها فى القلب ، يتعلق بها العلم . فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها ، وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير فى باب مايرى بالبصر ويدرك بالرؤية والله أعلم .

السبب الثانى : تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيه فمن اتقى الله تولى الله حفظه ولم يكله إلى غيره ، قال تعالى ﴿ **وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً** ﴾[١٥٠] ، وقال النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم لعبد الله بن عباس : « **احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك** »[١٥١] فمن حفظ الله حفظه الله ووجده أمامه أينما توجه . ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف ، وممن يحذر ؟

---

(١٤٨) ورد لفظ (**السميع البصير**) فى القرآن فى أربعة مواضع : -

- فى سورة (الإسراء) رقم (١) . ﴿**لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير**﴾.
- فى سورة (غافر) رقم (٢٠) . ﴿**إن الله هو السميع البصير**﴾ .
- فى سورة (غافر) رقم (٥٦) . ﴿**فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير**﴾.
- فى سورة (الشورى) رقم (١١). ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾.

(١٤٩) سورة (غافر) الآية رقم (٥٦) .

(١٥٠) سورة (آل عمران) الآية رقم (١٢٠) .

(١٥١) أخرجه الإمام أحمد فى « مسنده » (١ / ٣٠٧ ، ٢٩٣) قال الهيثمى : فى « مجمع الزوائد » (٧ / ١٨٩) من حديث عبد الله بن جعفر رواه الطبرانى وفيه على بن أبى القرشى وهو ضعيف . قال « ابن رجب » فى كتاب « جامع العلوم والحكم » هذا الحديث أخرجه الترمذى من رواية حنش الصنعانى عن ابن عباس وخرجه الإمام أحمد من حديث حنش الصنعانى مع إسنادين منقطعين ولم يميز لفظ بعضها من بعض ورواه عبد بن حميد فى مسنده بإسناد ضعيف عن عطاء عن ابن عباس . وقد روى هذا الحديث عن ابن عباس من طرق كثيرة وأصحها التى =

السبب الثالث : الصبر على عدوه ، وأن لا يقاتله ولا يشكوه ولا يحدث نفسه بأذاه أصلا . فما نُصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه والتوكل على الله ولا يستطل تأخيره وبغيه . فإنه كلما بغى عليه كان بغيه جندا وقوة للمبغى عليه المحسود ، يقاتل به الباغى نفسه وهو لايشعر . فبغيه سهام يرميها من نفسه إلى نفسه . ولو رأى المبغى عليه ذلك لسره بغيه عليه . ولكن لضعف بصيرته لايرى إلا صورة البغى دون آخره ومآله . وقد قال تعالى ﴿ **ومن عاقب بمثل ما عُوقب به ثم بُغى عليه لينصرنه الله** ﴾[(١٥٢)]، فإذا كان الله قد ضمن له النصر مع أنه قد استوفى حقه أولا ، فكيف بمن لم يستوفى شيئاً من حقه ، بل بُغى عليه وهو صابر ؟ وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغى وقطيعة الرحم . وقد سبقت سنة الله أنه لو بغى جبل على جبل لجعل الباغى منهما دكا .

السبب الرابع : التوكل على الله ، فمن يتوكل على الله فهو حسبه . والتوكل من أقوى الأسباب التى يدفع بها العبد مالا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم . وهو من أقوى الأسباب فى ذلك . فإن الله حسبه ، أى كافيه . ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه ولا يضره إلا أذى لابد منه ، كالحر والبرد ، والجوع والعطش . وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبداً . وفرق بين الأذى الذى هو فى الظاهر إيذاء له ، وهو فى الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه ، وبين الضرر الذى يتشقى به منه . قال بعض السلف : جعل الله لكل عمل جزاءً من جنسه . وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده ، فقال ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾[(١٥٣)]، ولم يقل : نؤته كذا وكذا من الأجر كما قال فى الأعمال ، بل جعل نفسه سبحانه كافى عبده المتوكل عليه وحسبه

= خرجها الترمذى . ثم قال وبكل حال فطريق حنش التى خرجها الترمذى حسنة جيدة (انظر جامع العلوم والحكم رقم ٢٢٣/٩) .

(١٥٢) سورة (الحج) الآية رقم (٦٠) .

(١٥٣) سورة (الطلاق) الآية رقم (٣) .

وواقيه ، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له ربه مخرجا من ذلك وكفاه ونصره .

وقد ذكرنا حقيقة التوكل وفوائده وعظم منفعته وشدة حاجة العبد إليه فى (كتاب الفتح القدسى) وذكرنا هناك فساد من جعله من المقامات المعلولة وأنه من مقامات العوام وأبطلنا قوله من وجوه كثيرة ، وبينا أنه من أجل مقامات العارفين ، وأنه كلما علا مقام العبد كانت حاجته إلى التوكل أعظم وأشد ، وأنه على قدر إيمان العبد يكون توكله وإنما المقصود هنا ذكر الأسباب التى يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر والباغى .

السبب الخامس : فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه ، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له ، فلا يلتفت إليه ولا يخافه ولا يملأ قلبه بالفكر فيه . وهذا من أنفع الأدوية وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره . فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه ، فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه ، بل انعزل عنه لم يقدر عليه . فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر . وهكذا الأرواح سواء . فإذا علق روحه وشبثها به ، وروح الحاسد الباغى متعلقة به يقظة ومناما لا يفتر عنه وهو يتمنى أن يتماسك الروحان ويتشبثا . فإذا تعلقت كل روح منهما بالأخرى عُدم القرار ، ودام الشر حتى يهلك أحدهما . فإذا جبذ روحه منه وصانها عن الفكر فيه والتعلق به . وأن لا يخطره بباله فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به – بقى الحاسد الباغى يأكل بعضه بعضا . فإن الحسد كالنار فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضاً.

وهذا باب عظيم النفع لايلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العلية [أما الغمر الذى يريد الانتقام والتشفى من عدوه فإنه بمعزل عنه] و [شتان] بين الكيس الفطن وبينه [ولا يمكن أحداً معرفة قدره] حتى يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه ، كأنه يرى من أعظم عذاب القلب والروح اشتغاله بعدوه وتعلق روحه به ولا يرى شيئاً آلم لروحه من ذلك . ولا يصدق بهذا إلا النفوس المطمئنة الوادعة

اللينة ، التى رضيت بوكالّة الله لها وعلمت أن نصره لها خير من انتصارها هى لنفسها . فوثقت بالله وسكنت إليه واطمأنت به ، وعلمت أن ضمانه حق ووعده صدق ، وأنه لا أوفى بعهده من الله ، ولا أصدق منه قيلا . فعلمت أن نصره لها أقوى وأثبت وأدوم وأعظم فائدة من نصرها هى لنفسها أو نصر مخلوق مثلها لها . ولا يقوى على هذا إلا بـ

السبب السادس : وهو الإقبال على الله والإخلاص له ، وجعل محبته ورضاه والإنابة إليه فى محل خواطر نفسه وأمانيها ، تدب فيها دبيب تلك الخواطر شيئاً فشيئاً ، حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها فى محاب الرب ، والتقرب إليه وتملقه وترضيه واستعطافه وذكره ، كما يذكر المحب التام المحبة محبوبه المحسن إليه الذى قد امتلأت جوانحه من حبه . فلا يستطيع قلبه انصرافاً عن ذكره ولا روحه انصرافاً عن محبته . فإذا صار كذلك فكيف يرضى لنفسه أن يجعل بيت أفكاره وقلبه معموراً بالفكر فى حاسدة والباغى عليه . والطريق إلى الانتقام منه والتدبير عليه ؟ هذا مالا يتسع له إلا قلب خراب لم تسكن فيه محبة الله وإجلاله وطلب مرضاته . بل إذا مسه طيف من ذلك واجتاز ببابه من خارج ناداه حرس قلبه : « إياك وحمى الملك ! اذهب إلى بيوت الخانات التى كل من جاء حل فيها ونزل بها . مالك ولبيت السلطان الذى أقام عليه اليزك ، وأدار عليه الحرس ، وأحاطه بالسور ؟ » قال تعالى حكاية عن عدوه إبليس أنه قال : ﴿ **فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾[١٥٤]، فقال تعالى : ﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان** ﴾[١٥٥]، وقال ﴿ **إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون** ﴾[١٥٦]، وقال فى حق الصديق

(١٥٤) سورة (ص) الآيتان رقم (٨٢ ، ٨٣) .

(١٥٥) سورة (الحجر) الآية رقم (٤٢) .

(١٥٦) سورة (النحل) الآيتان رقم (٩٩ ، ١٠٠) .

يوسف صلى الله عليه وسلم ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلَصين** ﴾(١٥٧) .

فما أعظم سعادة من دخل هذا الحصن ، وصار داخل اليزك ! لقد أوى إلى حصن لاخوف على من تحصن به ، ولا ضيعة على من أوى إليه ، ولا مطمع للعدو فى الدنو إليه منه ﴿ **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم** ﴾(١٥٨)

السبب السابع : تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التى سلطت عليه أعداءه . فإن الله تعالى يقول : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم** ﴾(١٥٩) ، وقال لخير الخلق ، وهم أصحاب نبيه ، دونه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ﴿ **أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مِثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسِكم** ﴾(١٦٠) فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب ، يعلمه أو لا يعلمه ، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف مايعلمه منها ، وماينساه مما عمله أضعاف ما يذكره . وفى الدعاء المشهور « **اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم** »(١٦١) فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه ، فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب .

ولقى بعض السلف رجل فأغلظ له ونال منه ، فقال له : قف حتى أدخل البيت ثم أخرج إليك ، فسجد لله وتضرع إليه وتاب وأناب إلى ربه ثم خرج إليه ، فقال له : ما ؟ فقال : تبت إلى الله من الذنب الذى سلَّطك به علىَّ .

---

(١٥٧) سورة (يوسف) الآية رقم (٢٤) .

(١٥٨) سورة (الحديد) الآية رقم (٢١) ، وسورة (الجمعة) الآية (٤) .

(١٥٩) سورة (الشورى) الآية رقم (٣٠) .

(١٦٠) سورة (آل عمران) الآية رقم (١٦٥) .

(١٦١) قال الهيثمى فى « مجمع الزوائد » رواه أبو يعلى عن شيخه عمرو بن الحصين العقلى وهو متروك (انظر مجمع الزوائد) فى (١٠ / ٢٢٤) .

وسنذكر إن شاء الله تعالى أنه ليس فى الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها . فإذا عوفى العبد من الذنوب عوفى من موجباتها ، فليس للعبد إذا بغى عليه وأوذى وتسلط عليه خصومه شيء أنفع له من التوبة النصوح .

وعلامة سعادته أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه ، فيشتغل بها وبإصلاحها وبالتوبة منها . فلا يبقى فيه فراغ لتدبر مانزل به ، بل يتولى هو التوبة وإصلاح عيوبه . والله يتولى نصرته وحفظه والدفع عنه ولا بد ، فما أسعده من عبد ، وما أبركها من نازلة نزلت به . وما أحسن أثرها عليه ، ولكن التوفيق والرشد بيد الله ، لا مانع لما أعطى ، ولا مُعطى لما منع ، فما كل أحد يوفق لهذا ، لا معرفة به ولا إرادة له ولا قدرة عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

السبب الثامن : الصدقة والإحسان ما أمكنه . فإن لذلك تأثيرا عجيبا فى دفع البلاء ودفع العين وشر الحاسد ، ولو لم يكن فى هذا إلا بتجارب الأمم قديما وحديثا لكفى به . فما تكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن متصدق ، وإن أصابه شيء من ذلك كان معاملا فيه باللطف والمعونة والتأييد ، وكانت له فيه العاقبة الحميدة . فالمحسن المتصدق فى خفارة إحسانه وصدقته عليه من الله جنة واقية وحصن حصين .

وبالجملة ، فالشكر حارس النعمة من كل مايكون سببا لزوالها ، ومن أقوى الأسباب حسد الحاسد والعائن . فإنه لا يفتر ولا ينى . ولا يبرد قلبه حتى تزول النعمة عن المحسود ، فحينئذ يبرد أنينه وتنطفىء ناره ، لا أطفأها الله ! فما حرس العبد نعمة الله عليه بمثل شكرها ، ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصى الله ، وهو كفران النعمة ، وهو باب إلى كفران المنعم . فالمحسن المتصدق يستخدم جنداً وعسكراً يقاتلون عنه وهو نائم على فراشه . فمن لم يكن له جند ولا عسكر وله عدو فإنه يوشك أن يظهر به عدوه وإن تأخرت مدة الظفر . والله المستعان .

والسبب التاسع : وهو من أصعب الأسباب على النفس وأشقها عليها ، ولا

يوفق له إلا من عظم حظه من الله ، وهو إطفاء نار الحاسد والباغى والمؤذى بالإحسان إليه ، فكلما ازداد أذى وشراً وبغياً وحسداً ازددت إليه إحسانا ، وله نصيحة ، وعليه شفقة ، وما أظنك تصدق بأن هذا يكون ، فضلا عن أن تتعاطاه . فاسمع الآن قوله عز وجل ﴿ **ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم * وما يُلقَّاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه هو السميع العليم** ﴾[١٦٢] ، وقال : ﴿ **أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ، ويدرؤون بالحسنة السيئة ، ومما رزقناهم ينفقون** ﴾[١٦٣] ، وتأمل حال النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذ ضربه قومه حتى أدموه ، فجعل يسلت الدم عنه ويقول : « **اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون** »[١٦٤] كيف جمع فى هذه الكلمات أربع مقامات من الإحسان ، قابل بها إساءتهم العظيمة إليه ؟ أحدها : عفوه عنهم ، والثانى : استغفاره لهم ، والثالث : اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون والرابع : استعطافه له بإضافتهم إليه ، فقال « **اغفر لقومى** » كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به : هذا ولدى هذا غلامى ، هذا صاحبى ، فهبه لى .

واسمع الآن ما الذى يسهل هذا على النفس ويطيبه إليها وينعمها به ، اعلم أن لك ذنوبا بينك وبين الله تخاف عواقبها ، وترجوه أن يعفو عنها ويغفرها لك ويهبها

---

(١٦٢) سورة (فصلت) الآيات رقم (٣٤ – ٣٦) .

(١٦٣) سورة (القصص) الآيات رقم (٥٤) .

(١٦٤) أخرجه البخارى فى كتاب (استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم) باب (٥) رقم (٦٩٢٩) حـ١٢ ، ومسلم (١٧٩٢) وأحمد فى مسنده (١ – ٤٤١)(وأورده الهيثمى فى « مجمع الزوائد » (٦ / ١١٧) من حديث سهل بن سعد الساعدى وقال رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح . [ولفظ البخارى أن النبى يحكى عن نبى من الأنبياء] .

لك ، ومع هذا لايقتصر على مجرد العفو والمسامحة ، حتى ينعم عليك ويكرمك ، ويجلب إليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله ، فإذا كنت ترجو هذا من ربك ، وتحب أن يقابل به إساءتك ، فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه ، وتقابل به إساءتهم ليعاملك الله تلك المعاملة ؟ فإن الجزاء من جنس العمل ، فكما تعمل مع الناس فى إساءتهم فى حقك يفعل الله معك فى ذنوبك وإساءتك جزاء وِفاقا . فانتقم بعد ذلك أو اعف ، وأحسن أو اترك . فكما تدين تدان ، وكما تفعل مع عباده يفعل معك فمن تصور هذا المعنى وشغل به فكره هان عليه الإحسان إلى من أساء إليه .

وهذا مع مايحصل له بذلك من نصر الله ومعيته الخاصة ، كما قال النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم للذى شكى إليه قرابته ، وأنه يحسن إليهم وهم يسيئون إليه فقال : « **لا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك** »[١٦٥] هذا مع ما يتعجله من ثناء الناس عليه ، ويصيرون كلهم معه على خصمه . فإن كل من سمع أنه محسن إلى ذلك الغير وهو مسىء إليه ، وجد قلبه ودعاءه وهمته مع المحسن على المسىء . وذلك أمر فطرى فطر الله عليه عباده . فهو بهذا الإحسان قد استخدم عسكراً لا يعرفهم ولا يعرفونه ، ولا يريدون منه إقطاعاً ولا خبزا

هذا مع أنه لابد له مع عدوه وحاسده من إحدى حالتين : إما أن يملكه بإحسانه فسيتعبده وينقاد له (أى عدوه) ويذل له ، ويبقى الناس إليه ، وأما أن يفتت كبده ويقطع دابره ، إن أقام على إساءته إليه . فإنه يذيقه بإحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه ، ومن جرب هذا عرفه حق المعرفة ، والله هو الموفق المعين ، بيده الخير كله ، لا إله غيره ، وهو المسئول أن يستعملنا وإخواننا فى ذلك بمنه وكرمه .

وفى الجملة ، ففى هذا المقام من الفوائد ما يزيد على مائة منفعة للعبد ، عاجلة وآجلة ، سنذكرها فى موضع آخر إن شاء الله تعالى .

---

(١٦٥) رواه مسلم فى صحيحه (٢٥٥٨) حـ٤ وأحمد فى مسنده (٢ / ١٨١ ، ٤٨٤)

السبب العاشر : وهو الجامع لذلك كله ، وعليه مدار هذه الأسباب . وهو تجريد التوحيد ، والترحل بالفكر فى الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم ، والعلم بأن هذه الآلات بمنزلة حركات الرياح ، وهى بيد محركها ، وفاطرها وبارئها ، ولا تضر ولا تنفع إلا بإذنه ، فهو الذى يحسن عبده بها ، وهو الذى يصرفها عنه وحده لا أحده سواه . قال تعالى : ﴿ **وإن يمسسك الله بضُرٍّ فلا كاشِفَ له إلا هو ، وإن يُرِدْكَ بخير فلا رادَّ لفضله** ﴾[١٦٦] ، وقال النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما : « **واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء كتبه الله عليك** »[١٦٧] فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه ، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله ، بل يفرد الله بالمخافة وقد أمنه منه ، وخرج من قلبه اهتمامه به واشتغاله به وفكره فيه . وتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلا واشتغالا به عن غيره ، فيرى أن إعماله فكره فى أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده ، وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل . والله يتولى حفظه والدفع عنه ، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا ، فإن كان مؤمنا فالله يدافع عنه ولا بد وبحسب إيمانه يكون دفاع الله عنه . فإن كمل إيمانه كان دفع الله عنه أتم دفع ، وإن مَزَجَ مُزِج له ، وإن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة ، كما قال السلف : من أقبل على الله بكليته أقبل الله عليه جملة ، ومن أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة ، ومن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة .

فالتوحيد حصن الله الأعظم الذى من دخله كان من الآمنين ، قال بعض السلف : من خاف الله خافه كل شىء ، ومن لم يخف الله أخافه من كل شىء .

فهذه عشرة أسباب يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر ، وليس له أنفع

---

(١٦٦) سورة (يونس) الآية رقم (١٠٧) .

(١٦٧) سبق تخريجه برقم (١٥١) وهو بقية حديث ابن عباس فارجع إليه .

من التوجه إلى الله وإقباله عليه ، وتوكله عليه وثقته به ، وأن لا يخاف معه غيره ، بل يكون خوفه منه وحده ولا يرجو سواه ، بل يرجوه وحده . فلا يعلق قلبه بغيره ، ولا يستغيث بسواه ، ولا يرجو إلا إياه . ومتى علق قلبه بغيره ورجاه وخافه وُكل إليه وخُذل من جهته . فمن خاف شيئاً غير الله سُلط عليه ، ومن رجا شيئاً سوى الله خُذل من جهته وحرم خيره . هذه سنة فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبدلا .

فصــــل

بيان الأقوال فى النفوس الناطقة والجن وتأثيرهما

فقد عرفت بعض ما اشتملت عليه هذه السورة من القواعد النافعة المهمة التى لا غنى للعبد عنها فى دينه ودنياه . ودلت على أن نفوس الحاسدين وأعينهم لها تأثير ، وعلى أن الأرواح الشيطانية لها تأثير بواسطة السحر والنفث فى العقد .

وقد افترق العالم فى هذا المقام أربع فرق ، ففرقة : أنكرت تأثير هذا وهذا ، وهم فرقتان : فرقة اعترفت بوجود النفوس الناطقة والجن ، وأنكرت تأثيرهما البتة . وهذا قول طائفة من المتكلمين ممن أنكر الأسباب والقوى والتأثيرات . وفرقة أنكرت وجودهما بالكيلة وقالت : لا وجود لنفس الآدمى سوى هذا الهيكل المحسوس وصفاته وأعراضه فقط ، ولا وجود للجن والشياطين سوى أعراض قائمة به ، وهذا قول كثير من ملاحدة الطبائعيين وغيرهم من الملاحدة المنتسبين إلى الإسلام . وهو قول شذاذ من أهل الكلام الذين ذمهم السلف ، وشهدوا عليهم بالبدعة والضلالة .

الفرقة الثانية : أنكرت وجود النفس الإنسانية المفارقة للبدن ، وأقرت بوجود الجن والشياطين . وهذا قول كثير من المتكلمين من المعتزلة وغيرهم .

الفرقة الثالثة : بالعكس أقرت بوجود النفس الناطقة المفارقة للبدن ، وأنكرت

وجود الجن والشياطين ، وزعمت أنها غير خارجة عن قوى النفس وصفاتها . وهذا قول كثير من الفلاسفة الإسلاميين وغيرهم . وهؤلاء يقولون : إن ما يوجد فى العالم من التأثيرات الغريبة والحوادث الخارقة فهى من تأثيرات النفس ، ويجعلون السحر والكهانة كله من تأثير النفس وحدهما بغير واسطة شيطان منفصل . (**وابن سينا**)(١٦٨) وأتباعه على هذا القول . حتى إنهم يجعلون معجزات الرسل من هذا الباب ، ويقولون إنما هى من تأثيرات النفس فى هيولى العالم . وهؤلاء كفار بإجماع أهل الملل ليسوا من أتباع الرسل جملة .

(**الفرقة الرابعة**)(١٦٩) : وهم أتباع الرسل وأهل الحق ، أقروا بوجود النفس الناطقة المفارقة للبدن ، وأقروا بوجود الجن والشياطين ، وأثبتوا ما أثبته الله تعالى من صفاتهما وشرهما واستعاذوا بالله منه . وعلموا أنه لا يعيذهم منه ولا يجيرهم إلا الله . فهؤلاء أهل الحق ، ومن عداهم مفرط فى الباطل ، أو معه باطل وحق ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

---

(١٦٨) (**ابن سيناء**) : هو الطبيب الفيلسوف . الحسن بن عبد الله بن سينا الرئيس كان بارعاً فى الطب فى زمانه ، كان أبوه من أهل بلخ وانتقل إلى بخارى واشتغل بها فقرأ القرآن . واتقنه وهو ابن عشر سنين واتقن الحساب والجبر والمقابلة وكان من فلاسفة الإسلام . وقد حصر الغزالى كلامه فى مقاصد الفلاسفة ثم رد عليه فى تهافت الفلاسفة فى عشرين مجلساً له ، كفره ثلاثاً منها وهى قوله بقدم العالم ، وعدم المعاد الجثمانى ، وأن الله لا يعلم الجزئيات . وبدعه فى البواقى ويقال : إنه تاب عند الموت فالله أعلم (البداية والنهاية لابن كثير جـ١٢ ص ٤٢)

(١٦٩) (**الفرقة الرابعة**) : هى أهل السنة والجماعة الذين يؤمنون بكتاب الله وما جاء فيه من وصفه لنفسه وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ولا تأويل فيؤمنون بالله سبحانه وتعالى وبأسمائه الحسنى وصفاته العليا ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون فى أسمائه وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه ولا يعطلونها . وهى الفرقة الناجية . وهؤلاء هم الوسط فى فرق الأمة . كما أن الأمة المرحومة (يعنى أمة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم) هى الوسط فى الأمم (قطف الثمر فى عقيدة أهل الأثر لمحمد صديق حسن خان)

فهذا ما يسر الله من الكلام على سورة الفلق وأما

سـورة النـاس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُل أعوذُ بربِّ الناس * مَلكِ الناس * إلٰه الناس * من شرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاس * الذى يُوَسْوِسُ فى صُدور الناس * مِنَ الجِنَّةِ والناس ﴾ .

وقد تضمنت أيضاً استعاذة ، ومستعاذاً به ، ومستعاذاً منه . فالاستعاذة تقدمت .

فصـل

بيان ربوبية الله وملكه وإلهيته ، ومناسبتها فى الاستعاذة

وأما المستعاذ به فهو الله **﴿ رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ﴾**. فذكر ربوبيته للناس وملكه إياهم وإلاهيته لهم . ولا بد من مناسبة فى ذكر ذلك فى الاستعاذة من الشيطان كما تقدم . فنذكر أولا معنى هذه الإضافات الثلاث ، ثم وجه مناسبتها لهذه الاستعاذة .

الإضافة الأولى : إضافة الربوبية ، المتضمنة لخلقهم وتدبيرهم وتربيتهم وإصلاحهم وجلب مصالحهم وما يحتاجون إليه ، ودفع الشر عنهم وحفظهم مما يفسدهم . هذا معنى ربوبيته لهم ، وذلك يتضمن قدرته التامة ورحمته الواسعة وإحسانه وعلمه بتفاصيل أحوالهم وإجابة دعواتهم وكشف كرباتهم .

الإضافة الثانية : إضافة الملك . فهو ملكهم المتصرف فيهم ، وهم عبيده ومماليكه ، وهو المتصرف لهم المدبر لهم كما يشاء ، النافذ القدرة فيهم ، الذى له

السلطان التام عليهم . فهو ملكهم الحق ، الذى إليه مفزعهم عند الشدائد والنوائب ، وهو مستغاثهم ومعاذهم وملجأهم . فلا صلاح لهم ولا قيام إلا به وبتدبيره . فليس لهم ملك غيره يهربون إليه إذا دهمهم العدو ، ويستصرخون به إذا نزل العدو بساحتهم .

الإضافة الثالثة : إضافة الإلهية . فهو إلههم الحق ، ومعبودهم الذى لا إله لهم سواه ولا معبود لهم غيره . فكما أنه وحده هو ربهم ومليكهم لم يشركه فى ربوبيته ولا فى ملكه أحد ، فكذلك هو وحده إلهم ومعبودهم . فلا ينبغى أن يجعلوا معه شريكا فى إلهيته ، كما لا شريك معه فى ربوبيته وملكه . وهذه طريقة القرآن يحتج عليهم بإقرارهم بهذا التوحيد على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة . وإذا كان وحده هو ربنا وملكنا وإلهنا ، فلا مفزع لنا فى الشدائد سواه ، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه ولا معبود لنا غيره . فلا ينبغى أن يُدعى ولا يُخاف ولا يُرجى ولا يُحبُّ سواه ولا يذل لغيره ، ولا يخضع لسواه ولا يتوكل إلا عليه . لأن من ترجوه وتخافه وتدعوه وتتوكل عليه ، إما أن يكون مربيك القيِّم بأمورك ومتولى شأنك ، وهو ربك فلا رب سواه ، أو تكون مملوكه وعبده الحق فهو ملك الناس حقاً وكلهم عبيده ومماليكه ، أو يكون معبودك وإلهك الذى لاتستغنى عنه طرفة عين ، بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلى حياتك وروحك ، وهو الإله الحق إلـه الناس الذى لا إله لهم سواه .

فمن كان ربهم وملكهم وإلههم فهم جديرون أن لا يستعيذوا بغيره ، ولا يستنصروا بسواه ، ولا يلجأوا إلى غير حماه ، فهو كافيهم وحسبهم وناصرهم ووليهم ومتولى أمورهم جميعاً بربوبيته وملكه وإلاهيته لهم ، فكيف لا يلتجىء العبد عند النوازل ونزول عدوه به إلى ربه ومالكه وإلهه . فظهرت مناسبة هذه الإضافات الثلاث للاستعاذة من أعدى الأعداء وأعظمهم عداوة وأشدهم ضررا وأبلغهم كيدا ، ثم إنه سبحانه كرر الاسم الظاهر ، ولم يوقع المضمر موقعه فيقول « رب الناس وملكهم وإلههم » تحقيقا لهذا المعنى وتقوية له ، فأعاد ذكرهم عند كل اسم من أسمائه ، ولم يعطف بالواو لما فيها من الإيذان بالمغايرة . والمقصود الاستعاذة

بمجموع هذه الصفات حتى كأنها صفة واحدة .

وقدم الربوبية لعمومها وشمولها لكل مربوب ، وأخر الإلهية لخصوصها لأنه سبحانه إنما هو إله مَن عبده ووحده واتخذه دون غيره إلها . فمن لم يعبده ويوحده فليس بإلهه وإن كان فى الحقيقة لا إله له سواه ، ولكن المشرك ترك إلهه الحق واتخذ إلهاً غيره باطلا . ووسط صفة الملك بين الربوبية والإلهية ؛ لأن الملك هو المتصرف بقوله وأمره فهو المطاع إذا أمر . وملكه لهم لخلقه إياهم ، فملكه من كمال ربوبيته ، وكونه إلههم الحق من كمال ملكه ، فربوبيته تستلزم ملكه وتقتضيه ، وملكه يستلزم إلهيته ويقتضيها . فهو الرب الحق ، الملك الحق ، الإله الحق ، خلقهم بربوبيته وقهرهم بملكه واستعبدهم بإلهيته .

فتأمل هذه الجلالة وهذه العظمة التى تضمنتها هذه الألفاظ الثلاثة على أبدع نظام وأحسن سياق ﴿ **رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس** ﴾ وقد اشتملت هذه الإضافات الثلاث على جميع قواعد الإيمان ، وتضمنت معانى أسمائه الحسنى .

أما تضمنها لمعانى أسمائه الحسنى ، فإن الرب هو : القادر الخالق البارىء المصور الحى القيوم العليم السميع البصير المحسن المنعم الجواد المعطى المانع الضار النافع المقدم المؤخر ، الذى يُضِل من يشاء ، ويهدى من يشاء ، ويسعد من يشاء ، ويشقى من يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء .... إلى غير ذلك من معانى ربوبيته التى له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى .

وأما الملك ، فهو الآمر الناهى ، المعز المذل ، الذى يصرف أمور عباده كما يحب . ويقلبهم كما يشاء ، وله من معنى الملك ما يستحق من الأسماء الحسنى : كالعزيز الجبار المتكبر الحكم العدل الخافض الرافع المعز المذل العظيم الجليل الكبير الحسيب المجيد الوالى المتعالى مالك الملك المقسط الجامع ... إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك .

أما الإله ، فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال ، فيدخل فى هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى . ولهذا كان القول الصحيح أن « الله »

أصله الإله ، كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شَذَّ منهم ، وأن اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معانى الأسماء الحسنى والصفات العلى .

فقد تضمنت هذه الأسماء الثلاثة جميع معانى أسمائه الحسنى ، فكان المستعيذ بها جديراً بأن يعاذ ويحفظ ، ويمنع من الوسواس الخناس ولا يسلط عليه وأسرار كلام الله أجل وأعظم من أن تدركها عقول البشر . وإنما غاية أولى العلم الاستدلال بما ظهر منها على ما وراءه ، وإن نسبة باديه إلى الخافى يسير .

فصـــل

الاستعاذة من شر الوسوسة المسببة للذنوب كلها

وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة من الشر الذى هو سبب الذنوب والمعاصى كلها . وهو الشر الداخل فى الإنسان ، الذى هو منشأ العقوبات فى الدنيا والآخرة . فسورة الفلق تضمنت الاستعاذة من الشر الذى هو ظلم الغير له بالسحر والحسد ، وهو شر من خارج .

وسورة الناس تضمنت الاستعاذة من الشر الذى هو سبب ظلم العبد نفسه ، وهو شر من داخل .

فالشر الأول : لا يدخل تحت التكليف ، ولا يطلب منه الكف عنه ، لأنه ليس من كسبه . والشر الثانى : فى سورة الناس يدخل تحت التكليف ، ويتعلق به النهى . فهذا شر المعائب ، والأول شر المصائب ، والشر كله يرجع إلى العيوب والمصائب ، ولا ثالث لهما . فسورة الفلق تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات ، وسورة الناس تتضمن الاستعاذة من شر العيوب التى أصلها كلها الوسوسة .

فصـــل

بيان مراعاة التكرير فى لفظ « وسوس » ومعناه

إذا عرف هذا ، فالوسواس فعلال من وسوس . وأصل الوسوسة : الحركة

أو الصوت الخفى الذى لايحس فيحترز منه . فالوسواس : الإلقاء الخفى فى النفس ، إما بصوت خفى لا يسمعه إلا من ألقى إليه ، وإما بغير صوت كما يوسوس الشيطان إلى العبد .

ومن هذا « وسوسة الحلى » وهو حركته الخفية فى الأذن ، والظاهر والله أعلم ، أنها سميت وسوسة لقربها وشدة مجاورتها لمحل الوسوسة من شياطين الإنس وهو الأذن ، فقيل « وسوسة الحلى » لأنه صوت مجاور للأذن كوسوسة الكلام الذى يلقيه الشيطان فى أذن من يوسوس له . ولما كانت الوسوسة كلاما يكرره الموسوس ويؤكده عند من يلقيه إليه كرروا لفظها بإزاء تكرير معناها ، فقالوا : « وسوس وسوسة » فراعوا تكرير اللفظ ليفهم منه تكرير مسماه . ونظير هذا ما تقدم من متابعتهم حركة اللفظ بإزاء متابعة حركة معناه ، كالدوران والغليان والنزوان وبابه . ونظير ذلك : زلزل ودكدك وكبكب الشىء ، لأن الزلزلة حركة متكررة . وكذلك الدكدكة والقلقلة ، وكذلك كبكب الشىء : إذا كبه فى مكان بعيد ، فهو يُكب فيه كباً بعد كب ، كقوله تعالى ﴿ **فكُبكبوا فيها هم والغاوون** ﴾[1] ، ومثله رضرضه : إذا كرر رضه مرة بعد مرة مثله ذرذره : إذا ذره شيئاً بعد شىء ، مثله صرصر الباب : إذا تكرر صريره ، ومثله مطمط الكلام : إذا مططه شيئاً بعد شىء ، ومثله كفكف الشىء : إذا كرر كفه ، وهو كثير وقد علم بهذا أن من جعل هذا الرباعى بمعنى الثلاثى المضاعف لم يصب ، لأن الثلاثى لايدل على تكرار بخلاف الرباعى المكرر . فإذا قلت : ذر الشىء وصر الباب وكف الثوب ورض الحب ، لم يدل على تكرار الفعل ، بخلاف ذرذر وصرصر ورضرض ونحوه ، فتأمله فإنه مطابق للقاعدة العربية فى الحذو بالألفاظ حذو المعانى ، وقد تقدم التنبيه على ذلك فلا وجه لإعادته . وكذلك قولهم « عج العجل » : إذا صوت ، فإن تابع صوته قالوا : عجعج . وكذلك « ثج الماء » : إذا صُب ، فإن تكرر ذلك قيل : ثجثج .

---

(١) سورة (الشعراء) الآية رقم (٩٤) .

والمقصود أن الموسوس لما كان يكرر وسوسته ويتابعها قيل : وسوس .

فصـــــل

ترجيح القول بأن « الوسواس » وصف ذاتى لامصدر

إذا عرف هذا فاختلف النحاة فى لفظ « الوسواس » هل هو وصف أن مصدر على قولين . ونحن نذكر حجة كل قول ثم نبين الصحيح من القولين بعون الله وفضله .

فأما من ذهب إلى أنه مصدر فاحتج بأن الفعل منه « فعلل » والوصف من فعلل إنما هو « مفعلل » كمدحرج ومسرهف مبيطر ومسيطر . وكذلك هو من « فعَّل » بوزن « مُفعَّل » كمقطع ومخرج ، وبابه . فلو كان الوسواس صفة لقيل « موسوس » ألا ترى أن اسم الفاعل من زلزل « مزلزل » ، لا « زلزال » ؟ وكذلك من دكدك « مدكدك » ، وهو مطرد . فدل على أن « الوسواس » مصدر وُصف به على وجه المبالغة ، أو يكون على حذف مضاف تقديره « ذو الوسواس » . قالوا : والدليل عليه أيضاً قوله الشاعر :

« تسمع للحلى بها وسواساً »

فهذا مصدر بمعنى الوسوسة سواء قال أصحاب القول الآخر : الدليل على أنه وصف أن « فعلل » ضربان أحدهما صحيح لا تكرار فيه ، كدحرج وسرهف وبيطر . وقياس مصدر هذا « الفعللة » كالدحرجة والسرهفة والبيطرة و « الفعلان » بكسر الفاء كالسرهاف والدحراج ، والوصف منه « مفعِلل » كمدحرج ومبيطر .

والثانى « فعلل » الثنائى المكرر ، كزلزل ودكدك ووسوس . وهذا فرع على « فعلل » المجرد عن التكرار ، لأن الأصل السلامة من التكرار . ومصدر هذا النوع والوصف منه مساو لمصدر الأول ووصفه . فمصدره يأتى على « الفعللة »

كالوسوسة والزلزلة ، « والفعلال » كالزلزال . وأقيس المصدرين وأولاهما بنوعى فعلل « الفعلال » لأمرين . أحدهما : أن « فعلل » مشاكل لـ « أفعل » فى عدد الحروف . وفتح الأول والثالث والرابع وسكون الثانى . فجعل « إفعال » مصدر أفعل ، و « فعلال » مصدر فعلل ، ليتشاكل المصدران ، كما يتشاكل الفعلان . فكان « الفعلان » أولى بهذا الوزن من « الفعللة » . الثانى : أن أصل المصدر أن يخالف وزنه وزن فعله ومخالفة « فعلال » لفعلل أشد من مخالفة « فعللة » له ، فكان « فعلال » أحق بالمصدرية من « فعللة » أو تساويا فى الاطراد ، مع أن « فعللة » أرجح فى الاستعمال وأكثر . هذا الأصل . وقد جاءوا بمصدر هذا الوزن المكرر مفتوح الفاء فقالوا : وسوس الشيطان وسواساً ، ووعوع الكلب وعواعا إذا عَوى ، وعظعظ السهم عظعاظاً : (إذا ارتعش فى مروره والتوى) والجارى على القياس « فعلال » بكسر الفاء أو « فعللة » وهذا المفتوح نادر ، لأن الرباعى الصحيح أصل للمتكرر ، ولم يأت مصدر الصحيح – مع كونه أصلا – إلا على « فعللة » و «فعلال » بالكسر . فلم يحسن بالرباعى المكرر لفرعيته أن يكون مصدره إلا كذلك ، لأن الفرع لا يخالف أصله بل يحتذى فيه حذوه . وهذا يقتضى أن لا يكون مصدره على « فَعلال » بالفتح ، فإن شذ حُفظ ولم يزد عليه .

قالوا : وأيضاً فإن « فعلالا » المفتوح الفاء قد كثر وقوعه صفة مصوغة من « فعلل » المكرر ليكون فيه نظير « فعَّال » من الثلاثى لأنهما متشاركان وزناً . فاقتضى ذلك أن لا يكون لـ « فعلال » من المصدرية نصيب ، كما لم يكن لـ « فعَّال » فيها نصيب ، فلذلك استندروا وقوع « وسواس » و « وعواع » و« وعظعاظ » مصادر ، وإنما حقها أن تكون صفات دالة على المبالغة فى مصادر هذه الأفعال . قالوا : وإذا ثبت هذا فحق ما وقع منها محتملا للمصدرية والوصفية أن يحمل على الوصفية حملا على الأكثر الغالب وتجنباً للشاذ .

فمن زعم أن « الوسواس » مصدر مضاف إليه « ذو » تقديراً ، فقوله خارج القياس والاستعمال الغالب ، ويدل على فساد ماذهب إليه أمران ، أحدهما : أن

كل مصدر أضيف إليه « ذو » تقريراً فتجرد للمصدرية أكثر من الوصف به ، كـ « رضى » (وصف بالمصدر ، أى مرضى عنه) ، و« صوم » (أى صائم) و « فطر » (أى مفطر) و « فعلال » المفتوح لم يثبت تجرده للمصدرية إلا فى ثلاثة ألفاظ فقط : وسواس ووعواع وعظعاظ . على أن منع المصدرين فى هذا ممكن ، لأن غاية ما يمكن أن يستدل به على المصدرية قولهم : « وسوس إليه الشيطان وسواساً » وهذا لا يتعين للمصدرية لاحتمال أن يراد به الوصفية ، وينتصب « وسواساً » على الحال ، ويكون حالا مؤكدة . فإن الحال قد يؤكد بها عاملها الموافق لها لفظاً ومعنى ، كقوله تعالى : ﴿ **وأرسلناك للناس رسولا** ﴾[٢]، و ﴿ **سخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره** ﴾[٣]، نعم ، إنما تتعين مصدرية « الوسواس » إذا سُمع « أعوذ بالله من وسواس الشيطان » ونحو ذلك مما يكون الوسواس فيه مضافاً إلى فاعله ، كما سُمع ذلك فى « الوسوسة » ولكن أين لكم ذلك ؟ فهاتوا شاهده ، فبذلك يتعين أن يكون « الوسواس » مصدراً لا بانتصابه بعد الفعل .

الوجه الثانى : من دليل فساد من زعم أن « وسواساً » مصدر مضاف إليه « ذو » تقديراً : أن المصدر المضاف إليه « ذو » تقديراً لا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع ، بل يلزم طريقة واحدة ، ليعلم أصالته فى المصدرية ، وأنه عارض الوصفية فيقال « امرأة صوم » « وامرأتان صوم » و « نساء صوم » ، لأن المعنى « ذات صوم » و « ذاتا صوم » و « ذوات صوم » . و « فعلال » الموصوف به ليس كذلك ، بل يثنى ويجمع ويؤنث ، فنقول : رجل ثرثار ، وامرأة ثرثارة ، ورجال ثرثارون . وفى الحديث : « **أبغضكم إلى الثرثارون المتفيهقون** »[٤] وقالوا: « ريح

---

(٢) سورة (النساء) الآية رقم (٧٩) .

(٣) سورة (النحل) الآية رقم (١٢) .

(٤) رواه الترمذى فى كتاب (البرو الصلة) باب (ماجاء فى معالى الأخلاق) رقم (٢٠١٨) بلفظ : « **وإن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون** » قالوا يارسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما =

رفرافة » أى تحريك الأشجار . و « ريح سفسافة » أى تنخل التراب . « درع فضفاضة » أى متسعة . والفعل من ذلك كله « فعلل » والمصدر « فعللة » و « فعلال » بالكسر ، ولم ينقل فى شيء من ذلك « فعلال » بالفتح وكذلك قالوا : تمتام وفأفاء ولضلاض : أى ماهر فى الدلالة ، وفجفاج : كثير الكلام ، وهرهار : أى ضحاك ، وكهكاه ووطواط أى ضعيف ، وحشحاش وعسعاس : أى خفيف ، وهو كثير ومصدره كله « الفعللة » والوصف « فعلال » بالفتح ، ومثله هفهاف : أى خميص ، ومثله دحداح : أى قصير ومثله بجباج : أى جسيم ، وتختاخ أى ألكن . وشمشام : أى سريع ، وشيء خشخاش : أى مصوت ، وقعقاع مثله ، وأسد قضقاض : أى كاسر ، وحية نضناض تحرك لسانها .

فقد رأيت « فعلال » فى هذا كله وصفاً مصدراً ، فما بال « الوسواس » أخرج عن نظائره وقياس بابه ؟ فثبت أن « وسواساً » وصف لا مصدر ، كثرثار وتمتام ودحداح

ويدل عليه وجه آخر ، وهو أنه وصفه بما يستحيل أن يكون مصدرا ، بل هو متعين الوصفية وهو الخناس . فالوسواس والخناس وصفان لموصوف محذوف وهو الشيطان وحسن حذف الموصوف ههنا غلبة الوصف حتى صار كالعلم عليه . والموصوف إنما يقبح حذفه إذا كان الوصف مشتركا فيقع اللبس كالطويل والقبيح والحسن ونحوه ، فيتعين ذكر الموصوف ليعلم أن الصفة له لا لغيره .

فأما إذا غلب الوصف واختص ولم يعرض فيه اشتراك ، فإنه يجرى مجرى الاسم ، ويحسن حذف الموصوف كالمسلم والكافر ، والبر والفاجر ، والقاصى

= المتفيهقون ؟ قال : « **المتكبرون** » .

قال الترمذى : وفى الباب عن أبى هريرة وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . وأخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤ / ١٩٤) بلفظ (**وإن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مساويكم أخلاقاً . الثرثارون . المتشدقون . المتفيهقون مساويكم**) قال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٢١/٨): رواه أحمد والطبرانى ورجال أحمد رجال الصحيح.

والدانى ، والشاهد والوالى ونحو ذلك . فحذف الموصوف هنا أحسن من ذكره . وهذا التفصيل أولى من إطلاق من منع حذف الموصوف ولم يفصل .

ومما يدل على أن « الوسواس » وصف لا مصدر أن الوصفية أغلب على «فعلال» من المصدرية كما تقدم ، فلو أريد المصدر لأتى بـ «ذو» المضافة إليه ليزول اللبس وتتعين المصدرية ، فإن اللفظ إذا احتمل الأمرين على السواء فلابد من قرينة تدل على تعيين أحدهما . فكيف والوصفية أغلب عليه من المصدرية ؟ وهذا بخلاف صوم وفطر وبابهما ، فإنها مصادر لاتلتبس بالأوصاف . فإذا جرت أوصافاً عُلم أنها على حذف مضاف ، أو تنزيلا للمصدر منزلة الوصف مبالغة على الطريقتين فى ذلك .

فتعين أن « الوسواس » هو الشيطان نفسه ، وأنه ذات لا مصدر ، والله أعلم .

فصل

« الخناس » هو الذى يشتد هروبه ورجوعه عند ذكر الله

وأما « الخناس » فهو « فعال » من خنس يخنس ، إذا توارى واختفى ، ومنه قول أبى هريرة : « لقينى النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم فى بعض طرق المدينة وأنا جنب ، فانخنست منه »(٥)

وحقيقة اللفظ : اختفاء بعد ظهور فليست لمجرد الاختفاء . ولهذا وصفت

---

(٥) أخرجه البخارى فى كتاب (الغسل) باب (عرق الجنب وإن المسلم لاينجس) رقم (٢٨٣) جـ١ وأحمد فى مسنده (٢ - ٤٧١) ، (٥ - ٢ - ٤) ورواية البخارى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم لقيه فى بعض طرق المدينة وهو جنب فانخنس منه وساق الحديث أما رواية (لقينى) ففى كتاب (الغسل) باب (الجنب ويمشى فى السوق وغيره) رقم (٢٨٥) حـ١ وليس فيها كلمة (فانخنس) إنما هى فى الحديث (فانسللت) انظر الفتح .

بها الكواكب فى قوله تعالى : ﴿ **فلا أقسم بالخُنَّسِ** ﴾[٦]، قال قتادة : هى النجوم تبدو بالليل وتخنس بالنهار ، فتختفى ولا ترى . وكذلك قال على رضى الله عنه : هى الكواكب تخنس بالنهار فلا ترى . وقالت طائفة : « الخنس » هى الراجعة التى ترجع كل ليلة إلى جهة المشرق ، وهى السبعة السيارة . قالوا : وأصل « الخنوس » الرجوع إلى وراء .

و « الخناس » هو مأخوذ من هذين المعنيين ، فهو من الاختفاء والرجوع والتأخير . فإن العبد إذا غفل عن ذكر الله جثم على قلبه الشيطان وانبسط عليه وبَذَر فيه أنواع الوساوس التى هى أصل الذنوب كلها . فإذا ذكر العبد ربه واستعاذ به انخنس وانقبض ، كما ينخنس الشىء ليتوارى ، وذلك الانخناس والانقباض هو أيضا تجمع ورجوع ، وتأخر عن القلب إلى خارج . فهو تأخر ورجوع معه اختفاء . و « خنس » و « انخنس » يدل على الأمرين معاً . قال قتادة : و « انخنس » « الخناس » له خرطوم كخرطوم الكلب فى صدر الإنسان ، فإذا ذكر العبد ربَّه خنس . ويقال : رأسه كرأس الحية ، وهو واضع رأسه على ثمرة القلب يمنيه ويحدثه ، فإذا ذكر الله خنس ، وإذا لم يذكره عاد ، ووضع رأسه يوسوس إليه ويمنيه .

وجىء من هذا الفعل بوزن « فعال » الذى للمبالغة دون (الخانس) و « المخنس » إيذانا بشدة هروبه ورجوعه ، وعظيم نفوره عند ذكر الله ، وأن ذلك دأبه وديدنه ، لا أنه يعرض له ذلك عند ذكر الله أحيانا ، بل إذا ذكر الله هرب وانخنس وتأخر . فإن الله هو مقمعته التى يُقمع بها ، كما يقمع المفسد والشرير بالمقامع التى تردعه من سياط وحديد وعصى ونحوها . فذكر الله يقمع الشيطان ويؤلمه ويؤذيه ، كالسياط والمقامع التى تؤذى من يضرب بها .

ولهذا يكون شيطان المؤمن هزيلا ضئيلا مُضنى مما يعذبه المؤمن ويقمعه به من

---

(٦) سورة (التكوير) الآية رقم (١٥) .

ذكر الله وطاعته . وفى أثر عن بعض السلف : « إن المؤمن يُنضى (أى يهزّل) شيطانه كما ينضى الرجل بعيره فى السفر » لأنه كلما اعترضه صب عليه سياط الذكر والتوجه والاستغفار والطاعة . فشيطانه معه فى عذاب شديد ، ليس بمنزلة شيطان الفاجر الذى هو معه فى راحة ودعة ، ولهذا يكون قويا عاتيا شديدا . فمن لم يعذب شيطانه فى هذه الدار بذكر الله تعالى وتوحيده واستغفاره وطاعته ، عذبه شيطانه فى الآخرة بعذاب النار . فلا بد لكل أحد أن يعذب شيطانه أو يعذبه شيطانه .

وتأمل كيف جاء بناء « الوسواس » مكرراً لتكريره الوسوسة الواحدة مراراً حتى يعزم عليها العبد . وجاء بنا « الخناس على وزن « الفعال » » الذى يتكرر منه نوع الفعل لأنه كلما ذكر الله انخنس ، ثم إذا غفل العبد عاوده بالوسوسة . فجاء بناء اللفظين مطابقا لمعنييهما .

فصل

أجناس شر الشيطان المحيط بابن آدم

وقوله : ﴿ **الذى يوسوس فى صدور الناس** ﴾[٧] صفة ثالثة للشيطان فذكر وسوسته أولا ، ثم ذكر محلها ثانيا وأنها فى صدور الناس .

وقد جعل الله للشيطان دخولاً فى جوف العبد ونفوذاً إلى قلبه وصدره ، فهو يجرى منه مجرى الدم ، وقد وكل بالعبد فلا يفارقه إلى الممات ، وفى الصحيحين من حديث الزهرى عن على بن حسين عن صفية بنت حييّ قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم معتكفا فأتيته أزوره ليلا ، فحدثته ثم قمت فانقلبت ، فقام معى لِيَقْلبنى ، وكان مسكنها فى دار أسامة بن زيد فمر رجلان من الأنصار ، فلما رأيا النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم أسرعا . فقال النبى ﷺ :

---

(٧) سورة (الناس) الآية رقم (٥) .

« **على رسلكما إنها صفية بنت حيّ** » فقالا : سبحان الله ، يارسول الله ! فقال : « **إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم ، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما سوءاً** – أو قال – **شيئاً** »[٨]

وفى الصحيح أيضاً عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « **إذا نودى بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط . فإذا قضى أقبل . فإذا ثوب بها أدبر . فإذا قضى أقبل ، حتى يخطر بين الإنسان وقلبه ، فيقول : اذكر كذا اذكر كذا – لما لم يكن يذكر – حتى لا يدرى أثلاثا صلى أم أربعاً ؟ فإذا لم يدر أثلاثاً صلى أم أربعاً سجد سجدتى السهو** »[٩]

ومن وسوسته ما ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : « **يأتى الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ، من خلق كذا ، من خلق كذا ؟ حتى يقول من خلق الله ؟ فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته** »[١٠] . وفى الصحيح أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قالوا : يارسول الله إن أحدنا ليجد فى نفسه ما لأن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به ، قال : « **الحمد لله الذى رد كيده إلى الوسوسة** »[١١]

---

(٨) أخرجه البخارى فى كتاب (بدء الخلق) باب (صفة إبليس وجنوده) رقم (٣٢٨١) جـ٦ ومسلم (٢١٧٥) وأحمد فى مسنده (٦ – ٣٣٧) وابن ماجه برقم (١٧٧٩) جـ١ .

(٩) أخرجه البخارى فى كتاب (بدء الخلق) باب (صفة إبليس وجنودة) رقم (٣٢٨٥) جـ٦ (انظر فتح) ومسلم (٣٨٩) وأحمد فى مسنده (٢ – ٣١٣ ، ٤٦٠ ، ٥٢٢) بلفظ وله خراط .

(١٠) أخرجه البخارى فى كتاب (بدء الخلق) باب (صفة إبليس وجنوده) رقم (٣٢٧٦) جـ٦ ومسلم فى (١٣٥) وأبوداود (٤٧٢١) فى السنة باب (فى الجهمية) وأحمد فى مسنده (٥ – ٢١٤) .

(١١) أخرجه أحمد فى مسنده (١ – ٢٣٥) وأبوداود فى (الأدب) باب (فى رد =

ومن وسوسته أيضا أن يشتغل القلب بحديثه حتى ينسيه مايريد أن يفعله ، ولهذا يضاف النسيان إليه إضافته إلى سببه . قال تعالى حكاية عن صاحب موسى أنه قال : ﴿ **فإنى نسيت الحوت ، وما أنسانيهُ إلا الشيطانُ أن أذكره** ﴾(١٢) ، وتأمل حكمة القرآن وجلالته كيف أوقع الأستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه ﴿ **الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس** ﴾(١٣) ، ولم يقل « من شر وسوسته » لتعم الاستعاذة شره جميعه فإن قوله : ﴿ **من شر الوسواس** ﴾ يعم كل شره ، ووصفه بأعظم صفاته وأشدها شراً ، وأقواها تأثيراً وأعمها فساداً ، وهى « الوسوسة » التى هى مبادىء الإرادة . فإن القلب يكون فارغا من الشر والمعصية ، فيوسوس إليه ويخطر الذنب بباله ، فيصوره لنفسه ويمنيه ويشهيه فيصير شهوة . ويزينها ويحسنها ويخيلها له فى خيال تميل نفسه إليه ، فيصير إرادة . ثم لا يزال يمثل ويخيل ويمنى ويشهى وينسى علمه بضررها ويطوى عنه سوء عاقبتها ، فيحول بينه وبين مطالعته ، فلا يرى إلاصورة المعصية والتذاذه بها فقط ، وينسى ماوراء ذلك ، فتصير الإرادة عزيمة جازمة . فيشتد الحرص عليها من القلب فيبعث الجنود فى الطلب . فيبعث الشيطان معهم مدداً لهم وعوناً ، فإن فتروا حركهم وإن وَنُوا أزعجهم . كما قال تعالى : ﴿ **ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تَؤُزُّهم أزًّا** ﴾(١٤) ، أى تزعجهم إلى المعاصى إزعاجا ، كلما فتروا أو وَنوا أزعجتهم الشياطين وأزتهم وأثارتهم . فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب ، وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة . وقد رضى لنفسه بالقيادة لفجَرة بنى آدم ، وهو الذى استكبر وأبى أن يسجد لأبيهم . فلا [اعتز] بتلك النخوة والكبر ، ولا [فاز] برضاه أن يصير قواداً لكل من عصى الله ، كما قال بعضهم :

= الوسوسة) برقم (٥١١٢) والطيالسى (٢٧٠٤) من حديث ابن عباس وإسناده صحيح .

(١٢) سورة (الكهف) الآية رقم (٦٣) .

(١٣) سورة (الناس) و الآيتان رقم (٤ – ٥) .

(١٤) سورة (مريم) الآية رقم (٨٣) .

عجبت من إبليس فى تيهه　　وقبح ما أظهر من نخوته
تاه على آدم فى سجدة　　وصــــار قــواداً لذريتــــه

فأصل كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة . فلهذا وصفه بها لتكون الاستعاذة من شرها أهم من كل مستعاذ منه ، وإلا فشره بغير الوسوسة حاصل أيضا . فمن شره أنه لص سارق أموال الناس فكل طعام أو شراب لم يذكر اسم الله عليه فله فيه حظ بالسرقة والخطف ، وكذلك يبيت فى البيت إذا لم يذكر فيه اسم الله . فيأكل طعام الإنس بغير إذنهم ، ويبيت فى بيوتهم بغير أمرهم ، فيدخل سارقا ويخرج مغيرا ، ويدل على عوراتهم . فيأمر العبد بالمعصية ، ثم يلقى فى قلوب الناس يقظة ومناما أنه فعل كذا وكذا .

ومن هذا أن العبد يفعل الذنب لا يطلع عليه أحد من الناس ، فيصبح والناس يتحدثون به . وما ذاك إلا أن الشيطان زينه له وألقاه فى قلبه ، ثم وسوس إلى الناس بما فعل وألقاه إليهم ، فأوقعه فى الذنب ثم فضحه به . فالرب تعالى يستره ، والشيطان يجهد فى كشف ستره وفضيحته . فيغتر العبد ويقول : هذا ذنب لم يره إلا الله ، ولم يشعر بأن عدوه ساع فى إذاعته وفضيحته . وقل من يفطن من الناس لهذه الدقيقة .

ومن شره أنه إذا نام العبد عقد على رأسه عقداً تمنعه من اليقظة ، كما فى صحيح البخارى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : « **يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب على كل عقدة مكانها ، عليك ليل طويل فارقد . فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده كلها . فأصبح نشيطا طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان** »[(١٥)] ومن شره

---

(١٥) أخرجه البخارى فى كتاب (التهجد) باب (عقد الشيطان على قافيه الرأس إذا لم يصل بالليل) رقم (١١٤٢) جـ٣ (انظر فتح البارى) ومسلم (٧٧٦) وأبو داود (١٣٠٦) والنسائى (٣ / ٢٠٣) وأحمد فى مسنده (٢ - ٢٤٣) وابن ماجه=

أنه يبول فى أذن العبد حتى ينام إلى الصباح ، كما ثبت عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه ذكر عنده رجل نام ليله حتى أصبح قال : « **ذاك رجل بال الشيطان فى أذنيه** » أو قال : « **فى أذنه** » رواه البخارى[١٦]

ومن شره أنه قعد لابن آدم بطرق الخير كلها ، فما من طريق من طرق الخير إلا والشيطان مرصد عليه يمنعه بجهده أن يسلكه . فإن خالفه وسلكه ثبَّطه فيه وعوَّقه وشوش عليه بالمعارضات والقواطع . فإن عمله وفرغ منه قيَّض له ما يبطل أثره ويرده على حافرته . ويكفى من شره أنه أقسم بالله ليقعدن لبنى آدم صراطه المستقيم ، وأقسم ليأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم .

ولقد بلغ شره أن أعمل المكيدة وبالغ فى الحيلة ، حتى أخرج آدم من الجنة . ثم لم يكفيه ذلك حتى استقطع من أولاده شرطة للنار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين[١٦]* . ثم لم يكفه ذلك حتى أعمل الحيلة فى إبطال دعوة الله من الأرض ، وقصد أن تكون الدعوة له وأن يُعبد هو من دون الله . فهو ساع بأقصى جهده على إطفاء نور الله ، وإبطال دعوته ، وإقامة دعوة الكفر والشرك ، ومحو التوحيد وأعلامه من الأرض

ويكفى من شره أنه تصدى لإبراهيم خليل الرحمن حتى رماه قومه بالمنجنيق فى النار ، فرد الله كيده عليه ، وجعل النار على خليله برداً وسلاماً ، وتصدى للمسيح صلى الله عليه وعلى آله وسلم حتى أراد اليهود قتله وصلبه ، فرد الله كيده

= (١٣٢٩) جـ١ ومالك فى الموطأ كتاب (قصر الصلاة فى السفر) باب (جامع الترغيب فى الصلاة) ١ / ١٧٦

(١٦) أخرجه البخارى فى كتاب (بدء الخلق) باب (صفة إبليس وجنوده) رقم (٣٢٧٠) جـ٦ ومسلم (٧٧٤) وأحمد فى مسنده (١ - ٤٢٧) والنسائى (٣ / ٢٠٤)

(١٦)* أخرجه البخارى من حديث أبى سعيد الخدرى قول الله لآدم : أخرج بعث النار . قال : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين .... الحديث فى كتاب (أحاديث الأنبياء) باب (قصة يأجوج ومأجوج) رقم (٣٣٤٨) جزء ٦ (انظر فتح البارى)

وصان المسيح ورفعه إليه . وتصدى لزكريا ويحيى حتى قتلا . واستثار فرعون حتى زين الفساد العظيم فى الأرض ، ودعوى أنه ربهم الأعلى .

وتصدى للنبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وظاهر الكفار على قتله بجهده ، والله تعالى يكبته ويرده خاسئاً . وتفلت على النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم بشهاب من نار يريد أن يرميه به ، وهو فى الصلاة فجعل النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول ، « **ألعنك بلعنة الله** »[(١٧)] وأعان اليهود على سحرهم للنبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

فإذا كان هذا شأنه وهمته فى الشر ، فكيف الخلاص منه إلا بمعونة الله وتأييده وإعاذته ؟

فصـــــل

بيان العقبات السبع وطلب الشيطان ابن آدم عليها

ولا يمكن حصر أجناس شره ، فضلا عن آحادها إذ كل شر فى العالم فهو السبب فيه . ولكن ينحصر شره فى ستة أجناس لايزال بابن آدم حتى ينال منه واحداً منها أو أكثر .

الشر الأول : شر الكفر والشرك ، ومعاداة الله ورسوله . فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه ، واستراح من تعبه معه . وهو أول مايريد من العبد ، فلا يزال به حتى يناله منه فإذا نال ذلك صيره من جنده وعسكره ، واستنابه على أمثاله وأشكاله ، فصار من دعاة إبليس ونوابه .

فإن يأس منه من ذلك ، وكان ممن سبق له الإسلام فى بطن أمه نقله إلى (المرتبة الثانية) من الشر ، وهى البدعة . وهى أحب إليه من الفسوق والمعاصى ، لأن ضررها فى نفس الدين ، وهو ضرر متعد ، وهى ذنب لا يتاب

---

(١٧) رواه مسلم (٥٤٢) جـ١ والنسائى فى كتاب (السهو) باب (البكاء فى الصلاة) ١ / ١٣ .

منه وهى مخالفة لدعوة الرسل ، ودعاء إلى خلاف ماجاءوا به ، وهى الكفر والشرك ، فإذا نال منه البدعة وجعله من أهلها ، بقى أيضا نائبه وداعياً من دعاته .

فإن أعجزه من هذه المرتبة وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة ، ومعاداة أهل البدع والضلال نقله إلى (المرتبة الثالثة) من الشر ، وهى الكبائر على اختلاف أنواعها . فهو أشد حرصا على أن يوقعه فيها

ولا سيما إن كان عالما متبوعا فهو حريص على ذلك لينفر الناس عنه ، ثم يشيع من ذنوبه ومعاصيه فى الناس ، ويستنيب منهم من يشيعها ويذيعها تدينا وتقربا بزعمه إلى الله تعالى . وهو نائب إبليس ولا يشعر فـ ﴿ **إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة** ﴾[18] ، هذا إذا أحبوا إشاعتها وإذاعتها ، فكيف إذا تولوا هم إشاعتها وإذاعتها ، لا نصيحة منهم ولكن طاعة لإبليس ونيابة عنه ؟

كل ذلك لينفر الناس عنه وعن الانتفاع به . وذنوب هذا – لو بلغت عنان السماء – أهون عند الله من ذنوب هؤلاء . فإنها ظلم منه لنفس ، إذا استغفر الله وتاب إليه قبل الله توبته ، وبدل سيئاته حسنات . وأما ذنوب أولئك فظلم للمؤمنين ، وتتبع لعورتهم ، وقصد لفضيحتهم . والله سبحانه بالمرصاد ، لا تخفى عليه كائن الصدور ودسائس النفوس .

فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى (المرتبة الرابعة) وهى الصغائر التى إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها ، كما قال النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « **إياكم ومحقِّرات الذنوب ، فإن مثل ذلك مثل قوم نزلوا بفلاة من الأرض** »[19] وذكر حديثا معناه أن كل واحد منهم جاء بعود حطب ، حتى

---

(١٨) سورة (النور) الآية رقم (١٩) .

(١٩) رواه أحمد فى « مسنده » (١ – ٤٠٢) ، (٥ – ٣٣١) وقال الهيثمى فى =

أوقدوا نارا عظيمة فطبخوا واشتووا . ولا يزال يسهل عليه أمر الصغار حتى يستهين بها فيكون صاحب الكبيرة الخائف منها أحسن حالا منه .

فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى (المرتبة الخامسة) وهى إشغاله بالمباحات التى لاثواب فيها ولا عقاب ، بل عاقبتها فوت الثواب الذى ضاع عليه باشتغاله بها .

فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة ، وكان حافظا لوقته شحيحاً به ، يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب ، نقله إلى (المرتبة السادسة) هو أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل ، فيأمره بفعل الخير المفضول ويحضه عليه ويحسنه له إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلى منه .

وقل من يتنبه لهذا من الناس ، فإنه إذا رأى فيه داعيا قويا ومحركا إلى نوع من الطاعة لايشك أنه طاعة وقربة ، فإنه لا يكاد يقول إن هذا الداعى من الشيطان ، فإن الشيطان لا يأمر بخير ، ويرى أن هذا خير ، فيقول : هذا الداعى من الله . وهو معذور ، ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير ، إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر ، وإما ليفوت بها خيراً أعظم من تلك السبعين باباً وأجل وأفضل .

وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه فى قلب العبد يكون سببه تجريد متابعة الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله وأحبها إليه وأرضاها له وأنفعها للعبد وأعمها نصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين – خاصتهم وعامتهم . ولا يعرف هذا إلا من كان من ورثة الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ونوابه فى الأمة وخلفائه فى الأرض . وأكثر

= « مجمع الزوائد » (١٠ / ١٨٩) رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط ورجالهما رجال الصحيح غير عمران بن دوار القطان وقد وثق .

الخلق محجوبون عن ذلك ، فلا يخطر ذلك بقلوبهم . والله يمن بفضله على من يشاء من عباده .

فإذا أعجزه العبد من هذه المراتب الست وأعيَى عليه ، سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه ، وقصد إخماله وإطفاءه ليشوش عليه قلبه ، ويشغل بحربه فكره وليمنع الناس من الانتفاع به . فيبقى سعيه فى تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه ، لا يفتر ولا يني . فحينئذ يلبس المؤمن لأَمَةَ الحرب (أى درعها) ولا يضعها عنه إلى الموت – ومتى وضعها أسر أو أصيب – فلا يزال فى جهاد حتى يلقى الله .

فتأمل هذا الفصل وتدبر موقعه وعظيم منفعته ، واجعله ميزانك تزن به الناس وتزن به الأعمال ، فإنه يُطلعك على حقائق الوجود ومراتب الخلق . والله المستعان وعليه التكلان ولو لم يكن فى هذا التعليق إلا هذا الفصل لكان نافعا لمن تدبره ووعاه .

فصل

كون الوسوسة تلقى فى الصدر ومنه تصل إلى القلب

وتأمل السر فى قوله تعالى : ﴿ **يوسوس فى صدور الناس** ﴾[٢٠] ولم يقل « فى قلوبهم » . والصدر هو ساحة القلب وبيته ، فمنه تدخل الواردات إليه . فتجتمع فى الصدر ثم تلج فى القلب ، فهو بمنزلة الدهليز له . ومن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلى الصدر ، ثم تتفرق على الجنود ، ومن فهم هذا فهم قوله تعالى : ﴿ **وليبتلى الله ما فى صدوركم وليُمحِّصَ ما فى قلوبكم** ﴾[٢١]، فالشيطان يدخل إلى ساحة القلب وبيته ، فليقى ما يريد إلقاءه إلى القلب . فهو موسوس

---

(٢٠) سورة (الناس) الآية رقم (٥) .

(٢١) سورة (آل عمران) الآية رقم (١٥٤) .

فى الصدر ووسوسته واصلة إلى القلب . ولهذا قال تعالى : ﴿ **فوسوس إليه الشيطان** ﴾[٢٢]، ولم يقل « فيه » لأن المعنى أنه ألقى إليه ذلك وأوصله إليه ، فدخل فى قلبه .

فصـــل

كون الوسوسة يشترك فيها شياطين الإنس وشياطين الجن

وقوله تعالى : ﴿ **من الجِنَّة والناس** ﴾[٢٣]، اختلف المفسرون فى هذا الجار والمجرور ، بم يتعلق ؟ فقال الفرَّاء وجماعة : هو بيان للناس الموسوَس فى صدورهم ، والمعنى يوسوس فى صدور الناس الذين هم من الجن والإنس ، أى الموسَوس فى صدورهم قسمان : إنس وجن . فالوسواس يوسوس للجنى ، كما يوسوس للإنسى . وعلى هذا القول فيكون ، ﴿ **من الجنة والناس** ﴾ نصب على الحال لأنه مجرور بعد معرفة على قول البصريين . وعلى قول الكوفيين « نصب بالخروج من المعرفة » هذه عبارتهم ، ومعناها أنه لما لم يصلح أن يكون نعتاً للمعرفة انقطع عنها ، فكان موضعه نصبا والبصريون يقدرونه حالا ، أى كائنين من الجنة والناس .

وهذا القول ضعيف جداً لوجوه أحدها : أنه لم يقم دليل على أن الجنى يوسوس فى صدور الجن ، ويدخل فيه كما يدخل فى الإنسى ، ويجرى منه مجراه من الإنسى . فأى دليل يدل على هذا حتى يصح حمل الآية عليه ؟

الثانى : أنه فاسد من جهة اللفظ أيضا . فإنه قال : ﴿ **الذى يوسوس فى صدور الناس** ﴾ فكيف يبين « الناس » بـ « الناس » ؟ فإن معنى الكلام على قوله : يوسوس فى صدور الناس الذين هم - أو كائنين - من الجنة والناس . أفيجوز أن يقال : فى صدور الناس الذين هم من الناس وغيرهم ؟ هذا مالا يجوز ، ولا هو استعمال فصيح .

(٢٢) سورة (طه) الآية رقم (١٢٠) .
(٢٣) سورة (الناس) الآية رقم (٦) .

الثالث : أن يكون قد قسم الناس إلى قسمين : جنة وناس . وهذا غير صحيح فإن الشيء لايكون قسيم نفسه .

الرابع : أن « الجِنة » لا يطلق عليهم اسم « الناس » بوجه لا أصلا ولا اشتقاقا ولا استعمالا . ولفظهما يأبى ذلك . فإن الجن سُمُّوا « جنا » من « الاجتنان » وهوالاستتار فهم مستترون عن أعين البشر فسموا « جنا » لذلك . من قولهم « جنه الليل وأجنه » إذا ستره و « أجن الميت » إذا ستره فى الأرض . قال :

ولا تبك ميتاً بعد ميت أجنه على ، وعباس وآل أبى بكر

يريد النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ومنه « الجنين » لاستتارة فى بطن أمه ، قال تعالى : ﴿ **وإذ أنتم أجنَّة فى بطون أمهاتكم** ﴾[٢٤]، ومنه « المجن » لاستتار المحارب سلاح خصمه . ومنه « الجنة » لاستتار داخلها بالأشجار : ومنه « الجنة » بالضم لما يقى الإنسان من السهام والسلاح . ومنه « المجنون » لاستتار عقله .

وأما « الناس » فبينه وبين « الإنس » مناسبة فى اللفظ والمعنى ، وبينهما اشتقاق أوسط ، وهو عقد تقاليب الكلمة على معنى واحد و « الإنس » و « الإنسان » مشتق من « الإيناس » وهو الرؤية والإحساس . ومنه قوله : ﴿ **آنس من جانب الطور ناراً** ﴾[٢٥]، أى رآها ، ومنه : ﴿ **فإن آنستم منهم رشدا** ﴾[٢٦]، أى أحسستموه ورأيتموه . فالإنسان سمى « إنساناً » لأنه يونس أى يرى بالعين . و « الناس » فيه قولان ، أحدهما : أنه مقلوب من «أنس » وهو بعيد والأصل عدم القلب . والثانى : وهو الصحيح أنه من « النوس » وهو الحركة المتتابعة . فسمى الناس « ناساً » للحركة الظاهرة والباطنة كما سمى الرجل حارث وهمام ،

---

(٢٤) سورة (النجم)الآية رقم (٣٢) .
(٢٥) سورة (القصص) الآية رقم (٢٩) .
(٢٦) سورة (النساء) الآية رقم (٦) .

هما أصدق الأسماء[٢٧]، كما قال النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم لأن كل أحد له هم وإرادة ، وهى مبدأ ، وحرث وعمل هو منتهى . فكل أحد حارث وهمام ، والحرث والهم حركتا الظاهر والباطن . وهو حقيقة « النوس » وأصل « ناس : نَوَسَ » تحركت الواو وقبلها فتحة فصارت ألفاً . هذان هما القولان المشهوران فى اشتقاق « الناس » .

وأما قول بعضهم : إنه من « النسيان » وسمى « الإنسان » إنسانا لنسيانه ، وكذلك الناس سموا « ناسا » لنسيانهم فليس هذا القول بشىء . وأين « النسيان » الذى مادته « ن س ى » إلى « الناس » الذى مادته « ن و س » وكذلك أين هو من الإنس الذى مادته « أ ن س » .

وأما إنسان فهو « فعلان » من « أ ن س » والألف والنون فى آخره زائدتان ، لا يجوز فيه غير هذا البتة إذ ليس فى كلامهم « أنسن » حتى يكون إنسانا إفعالا منه . ولا يجوز أن يكون الألف والنون فى أوله زائدتين إذ ليس فى كلامهم « انفعل » فيتعين أنه « فعلان » من الإنس . ولو كان مشتقا من « نسى » لكان « نسيانا » لا « إنسانا »

فإن قلت فهلا جعلته « إفعلالا » وأصله إنسيان كليلة أضحيان ثم حذفت الياء تخفيفا فصار « إنساناً » ؟ قلت : يأبى ذلك عدم « إفعلال » فى كلامهم وحذف الياء بغير سبب ، ودعوى مالا نظير له وذلك كله فاسد .

على أن « الناس » قد قيل أن أصله « الأُناس » فحذفت الهمزة ، فقيل الناس واستدل بقول الشاعر :

أن المنايا يطلعن على الأناس الغافلينا

---

(٢٧) الحديث لفظه كما جاء فى كتاب ضعيف الجامع (**أحب الأسماء إلى الله ماتعبد له . وأصدق الأسماء همام وحارث**) . قال الألبانى (موضوع) (ضعيف الجامع) برقم (١٥٦) وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير وفيه=

ولا ريب أن أناسا « فعال » ولا يجوز فيه غير ذلك البتة . فإن كان أصل ناس أناس فهو أقوى على أنه من « أنس » ، ويكون الناس كالإنسان سواء فى الاشتقاق .

ويكون وزن ناس على هذا القول .... حال ، لأن المحذوف فاؤه . وعلى القول الأول يكون وزنه « فعل » لأنه من « النَّوس » . وعلى القول الضعيف يكون وزنه « فلع » لأنه من نسى فنقلت لامه إلى موضع العين فصار ناسا ووزنه فلعاً .

والمقصود أن « الناس » اسم لبنى آدم ، فلا يدخل الجن فى مسماهم . فلا يصح أن يكون ﴿ **من الجنة والناس** ﴾ بياناً لقوله ﴿ **فى صدور الناس** ﴾ ، وهذا واضح لاخفاء فيه .

فإن قيل : لا محذور فى ذلك ، فقد أطلق على الجن اسم « الرجال » كما فى قوله تعالى : ﴿ **وأنه كان رجال من الإنس ويعوذون برجال من الجن** ﴾[(٢٨)] ، فإذا أطلق عليهم اسم الرجال لم يمتنع أن يطلق عليهم اسم الناس .

قلت : هذا هو الذى غر من قال إن الناس اسم للجن والإنس فى هذه الآية . وجواب ذلك أن اسم الرجال إنما وقع عليهم وقوعاً مقيداً فى مقابلة ذكر « الرجال من الإنس » ، ولا يلزم من هذا أن يقع اسم الناس والرجال عليهم مطلقا وأنت

= محمد بن محصن العكاشى . وهو متروك . انظر المجمع (٨ / ٥٠) . قال الألبانى : فى محمد بن محصن العكاشى بل هو كذاب كما قال ابن معين ، وقال الدار قطنى : يضع الحديث . ثم أخرج فى « الصحيحة » « **أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن والحارث** » تحت رقم (٩٠٤) وقال للحديث هذا مرسل قوى بلفظ : « **طير الأسماء عبد الله وعبد الرحمن** » ونحو هذا ، « **وأصدق الأسماء الحارث وهمام حارث لدنياه ولدينه ، وهمام بهما وشر الأسماء حرب ومرة** » .

« **قلت** » : صح عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم « **أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن** » رواه مسلم (٢١٣٤) فى (الأدب) باب (النهى عن التكنى بأبى القاسم) والترمذى (٢٨٣٥) ، (٢٨٣٦) من حديث ابن عمر .

(٢٨) سورة (الجن) الآية رقم (٦) .

إذا قلت إنسان من حجارة أو رجل من خشب ونحو ذلك ، لم يلزم من ذلك وقوع اسم الرجل والإنسان عند الإطلاق على الحجر والخشب . وأيضاً فلا يلزم من إطلاق اسم الرجل على الجنى أن يطلق عليه اسم الناس وذلك لأن الناس والجنة متقابلان ، وكذلك الإنس والجن . فالله سبحانه يقابل بين اللفظين كقوله :﴿ **يامعشر الجن والإنس** ﴾[٢٩]، وهو كثير فى القرآن . وكذلك قوله : ﴿ **من الجنة والناس** ﴾ يقتضى أنهما متقابلان . فلا يدخل أحدهما فى الآخر ، بخلاف الرجال والجن فإنهما لم يستعملا متقابلين . فلا يقال الجن والرجال كما يقال الجن والإنس ، وحينئذ فالآية أبين حجة عليهم فى أن الجن لا يدخلون فى لفظ الناس ، لأنه قابل بين الجنة والناس فعلم أن أحدهما لا يدخل فى الآخر . فالصواب القول الثانى : وهو أن قوله : ﴿ **من الجنة والناس** ﴾ بيان للذى يوسوس ، وأنهم نوعان : إنس وجن ، فالجنى يوسوس فى صدور الإنس ، والإنسى أيضاً يوسوس إلى الإنسى . فالموسوس نوعان : إنس وجن . فإن الوسوسة هى الإلقاء الخفى فى القلب ، وهذا مشترك بين الجن والإنس ووسوسته إنما هى بواسطة الأذن ، والجن لايحتاج إلى تلك الواسطة لأنه يدخل فى ابن آدم ويجرى منه مجرى الدم . على أن الجن قد يتمثل له ، ويوسوس إليه فى أذنه كالإنسى ، كما فى البخارى عن عروة عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال : « **إن الملائكة تحدث فى العنان** – والعنان : الغمام – **بالأمر يكون فى الأرض فتسمع الشياطين الكلمة فَتُقرها** (أى تصبها) **فى أذن الكاهن كما تقر القارورة ، فيزيدون معها مائة كذلك من عند أنفسهم** »[٣٠]فهذه وسوسة وإلقاء من الشيطان بواسطة الأذن .

ونظير اشتراكهما فى هذه الوسوسة اشتراكهما فى الوحى الشيطانى ، قال تعالى : ﴿ **وكذلك لكل جعلنا نبى عدواً شياطينَ الأنس والجن ، يوحى بعضهم إلى بعض**

---

(٢٩) سورة (الرحمن) الآية رقم (٣٣) .

(٣٠) أخرجه البخارى فى كتاب (بدء الخلق) باب (صفة إبليس وجنوده) رقم (٣٢٨٨) جـ٦ (انظر الفتح)

زخرف القول غروراً ﴾[31]، فالشيطان يوحى إلى الإنس باطله ، ويوحيه الإنسى إلى إنسى مثله . فشياطين الإنس والجن يشتركان فى الوحى الشيطانى ويشتركان فى الوسوسة

وعلى هذا تزول تلك الإشكالات والتعسفات التى ارتكبها أصحاب القول الأول ، وتدل الآية على الاستعاذة من شر نوعى الشياطين : شياطين الإنس وشياطين الجن . وعلى القول الأول إنما تكون الاستعاذة من شر شياطين الجن فقط ، فتأمله فإنه بديع جداً .

فهذا ما مَنَّ الله به من الكلام على بعض أسرار هاتين السورتين ، وله الحمد والمنة وعسى الله أن يساعد بتفسير على هذا النمط فما ذلك على الله بعزيز والحمد لله رب العالمين .

ونختم الكلام على السورتين بذكر :

(٣١) سورة (الأنعام) الآية رقم (١١٢) .

قاعدة نافعة فيما يعتصم به العبد من الشيطان

ويستدفع به شره ، ويحترز به منه ، وذلك عشرة أسباب

أحدها : الاستعاذة بالله من الشيطان . قال تعالى : ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه هو السميع العليم** ﴾[٣٢]، وفى موضع آخر : ﴿ **إنه سميع عليم** ﴾[٣٣]، وقد تقدم أن « السمع » المراد به ههنا سمع الإجابة لا مجرد السمع العام .

وتأمل سر القرآن كيف أكد الوصف : ﴿ **السميع العليم** ﴾ بذكر صيغة « هو » الدال على تأكيد النسبة واختصاصها ، وعرف الوصف بالألف واللام فى سورة حم لاقتضاء المقام لهذا التأكيد وتركه فى سورة الأعراف لاستغناء المقام عنه .

فإن الأمر بالاستعاذة فى سورة حم وقع بعد الأمر بأشق الأشياء على النفس وهو مقابلة إساءة المسىء بالإحسان إليه . وهذا أمر لايقدر عليه إلا الصابرون . ولا يلقاه إلا ذو حظ عظيم ، كما قال الله تعالى . والشيطان لايدع العبد يفعل هذا ، بل يريه أنه هذا ذل وعجز ، و[أنه] يسلط عليه عدوه فيدعوه إلى الانتقام ويزينه له . فإن عجز عنه دعاه إلى الإعراض عنه ، وأن لايسىء إليه ولا يحسن . فلا يؤثر الإحسان إلى المسىء إلا من خالفه ، وآثر الله وما عنده على حظه العاجل . فكان المقام مقام تأكيد وتحريض ، فقال فيه : ﴿ **وإما ينزَغَنَّك من الشيطان نزع فاستعذ بالله ، إنه هو السميع العليم** ﴾[٣٤]

---

(٣٢) سورة (فصلت) الآية رقم (٣٦) .

(٣٣) سورة (الأعراف) الآية رقم (٢٠٠) .

(٣٤) سورة (فصلت) الآية رقم (٣٦) .

وأما فى سورة الأعراف فإنه أمره أن يعرض عن الجاهلين ، وليس فيها الأمر بمقابلة إساءتهم بالإحسان بل بالإعراض وهذا سهل على النفوس غير مستعصى عليها فليس حرص الشيطان وسعيه فى دفع هذا كحرصه على دفع المقابلة بالإحسان فقال : ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه سميع عليم** ﴾[٣٥] وقد تقدم ذكر الفرق بين هذين الموضعين وبين قوله فى حم المؤمن : ﴿ **فاستعذ بالله ، إنه هو السميع البصير** ﴾[٣٦]

وفى صحيح البخارى عن عدى بن ثابت عن سليمان بن صرد قال : كنت جالسا مع النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم . ورجلان يستبان ، فأحدهما احمر وجهه وانتفخت أوداجه ، فقال النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « **إنى لأعلم كلمة لوقالها ذهب عنه ما يجد ، لو قال : أعوذ بالله من الشيطان (الرجيم) ذهب عنه ما يجد** » [.... الحديث][٣٧]

الحرز الثانى : قراءة هاتين السورتين ، فإن لهما تأثيراً عجيباً فى الاستعاذة بالله من شره ودفعه والتحصن منه . ولهذا قال النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « **ما تعوذ المتعوذون بمثلها** »[٣٨] . وقد تقدم أنه كان يتعوذ بهما كل ليلة عند النوم ، وأمر عقبة أن يقرأ بهما دبر كل صلاة[٣٩] . وتقدم قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « **إن من قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثا حين يمسى وثلاث حين يصبح ، كفته من كل شىء** »[٤٠]

---

(٣٥) سورة (الأعراف) الآية رقم (٢٠٠) .

(٣٦) سورة (غافر) الآية رقم (٥٦) .

(٣٧) أخرجه البخارى فى كتاب (بدء الخلق) باب (صفة إبليس وجنوده) رقم (٣٢٨٢) جـ٦ (انظر الفتح) ومسلم (٢٦١٠) وأحمد فى « مسنده » (٦ - ٣٩٤) ، (٥ - ٢٤٠)

(٣٨) أخرجه النسائى فى كتاب الاستعاذة (جـ٨ / ٢٥٠) .

(٣٩) سبق تخريجه برقم (٤) فانتبه [تفسير سورة الفلق] .

(٤٠) سبق تخريجه برقم (٥) فارجع إليه [**تفسير سورة الفلق**] .

الحرز الثالث : قراءة آية الكرسى . ففى الصحيح من حديث محمد بن سيرين عن أبى هريرة قال : وكلنى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بحفظ زكاة رمضان ، فأتى آتٍ فجعل يحثو من الطعام . فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فذكر الحديث . فقال : أذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى ، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح . فقال النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « **صدقك وهو كذوب ، ذاك الشيطان** »[٤١]. وسنذكر إن شاء الله تعالى السر الذى لأجله كان لهذه الآية العظيمة هذا التأثير العظيم فى التحرز من الشيطان ، واعتصام قارئها بها ، فى كلام مفرد عليها وعلى أسرارها وكنوزها بعون الله وتأييده .

الحرز الرابع : قراءة سورة البقرة . ففى الصحيح من حديث سهيل عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : « **لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، وإن البيت الذى تقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان** »[٤٢].

الحرز الخامس : خاتمة سورة البقرة . فقد ثبت فى الصحيح من حديث أبى مسعود الأنصارى قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « **من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه** »[٤٣] وفى الترمذى عن النعمان ابن بشير ، عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : « **إن الله كتب كتابا**

---

(٤١) أخرجه البخارى فى كتاب (الوكالة) باب (إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً فأجازه الموكل فهو جائز وإن أقرضه إلى أجل مسمى جاز) رقم (٢٣١١) جـ٤ وكتاب (بدء الخلق) باب (صفة إبليس وجنوده) رقم (٣٢٧٥) جـ٦ انظر الفتح وفى كتاب (فضائل القرآن) باب (فضل سورة البقرة) رقم (٥٠١٠) جـ٨ .

(٤٢) أخرجه مسلم (٧٨٠) والترمذى (٢٨٨٠) أحمد فى مسنده (٢ - ٣٦٧)

(٤٣) أخرجه البخارى فى كتاب (فضائل القرآن) باب (فضل سورة البقرة) رقم (٥٠٠٩) جـ٨ ومسلم (٨٠٨) وأبو داود (١٣٩٧) والترمذى (٢٨٨٤)

قبل أن يخلق الخلق (لفظ الترمذى : **السموات والأرض**) **بألفى عام ، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ، فلا يقرآن فى دار ثلاث ليال فيقربها شيطان** »[٤٤]

الحرز السادس : أول سورة حم المؤمن إلى قوله : ﴿ **إليه المصير** ﴾ مع آية الكرسى . ففى الترمذى من حديث عبد الرحمن بن بكر بن أبى مُلَيكة [المليكى] عن زرارة بن مصعب عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « **من قرأ حم المؤمن إلى** ﴿ **إليه المصير** ﴾ **وآية الكرسى حين يصبح حفظ بهما حتى يمسى . ومن قرأهما حين يمسى حفظ حتى يصبح** »[٤٥]. وعبد الرحمن المليكى ، وإن كان قد تكلم فيه من قبل حفظه ، فالحديث له شواهد فى قراءة آية الكرسى ، ومن محتمل على غرابته .

الحرز السابع : « لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير » مائة مرة ففى الصحيحين من حديث سمى مولى أبى بكر عن أبى صالح عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : « **من قال لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، فى يوم مائة مرة ، كانت له عدلُ عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى . ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك** »[٤٦]. فهذا حرز عظيم النفع جليل الفائدة ، يسير على من يسره الله عليه .

---

(٤٤) أورده الهيثمى فى « مجمع الزوائد » (٦ / ٣١٢) بلفظ : « **قبل أن يخلق السموات والأرض** » من حديث شداد بن أوس وقال : رواه الطبرانى ورجاله ثقات . والإمام أحمد فى مسنده (٤-٢٧٤) وصححه الألبانى فى صحيح الجامع برقم (١٧٩٥) جـ١ .

(٤٥) قال الألبانى : فى ضعيف الجامع برقم (٥٧٨١) « ضعيف » .

(٤٦) أخرجه البخارى فى كتاب (بدء الخلق) باب (صفة إبليس وجنوده) رقم (٣٢٩٣) جـ٦ ومسلم (٢٦٩١) والترمذى (٣٤٦٤) أحمد فى مسنده (٢ - ١٨٥ ، ٣٠٢) ومالك فى الموطأ (١ / ٢٠٩) .

الحرز الثامن : وهو من أنفع الحروز من الشيطان : كثرة ذكر الله عز وجل ، ففي الترمذي من حديث الحارث الأشعري أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : « **إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها . وإنه كاد أن يبطئ بها ، فقال عيسى : إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها . وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها ، فإما أن تأمرهم وأما أن آمرهم . فقال يحيى : أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب . فجمع الناس في بيت المقدس ، فامتلأ (في نسخة : المسجد) وقعدوا على الشرف ، فقال : إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن . وآمركم أن تعملوا بهن .**

أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً . وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق فقال : هذه داري ، وهذا عملي ، فاعمل وأدِّ إليَّ . فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده ، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ؟

وإن الله أمركم بالصلاة ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا ، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته مالم يلتفت .

وآمركم بالصيام . فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك ، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها ، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

وآمركم بالصدقة . فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو ، فأوثقوا يده إلى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه . فقال : أنا أفديه منك بالقليل والكثير ، ففدى نفسه منهم .

وآمركم أن تذكروا الله . فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعا ، حتى [إذا] أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله » .

قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « **وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن :**

السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة . **فإنـ[ـه] من فارق الجماعة قَيدَ شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه ، إلا أن يراجع . ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جثى** (أى جماعات ، جمع جثوة) **جهنم** » فقال رجل : يارسول الله ، وإن صلى وصام ؟ قال : « **وإن صلى وصام . فادعوا بدعوى الله الذى سماكم المسلمين ، المؤمنين . عباد الله** »[٤٧]. قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب صحيح . وقال البخارى : الحارث الأشعرى له صحبة ، وله غير هذا الحديث.

فقد أخبر النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم فى هذا الحديث أن العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله ، وهذا بعينه هو الذى دلت عليه سورة ﴿ **قل أعوذ برب الناس** ﴾ فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس و « الخناس » الذى إذا ذكر العبدُ الله انخنس وتجمع وانقبض ، وإذا غفل عن ذكر الله التقم القلب وألقى إليه الوساوس ، التى هى مبادىءالشر كله . فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله عز وجل .

الحرز التاسع : والوضوء والصلاة وهذا من أعظم ما يتحرز به منه ، ولا سيما عند توارد قوة الغضب والشهوة ، فإنها نار تغلى فى قلب ابن آدم . كما فى الترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال : « **ألا وإن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ، أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ؟ فمن أحس بشىء من ذلك فليلصق بالأرض** »[٤٨]وفى أثر آخر « **إن الشيطان خلق من نار ، وإنما تطفأ النار بالماء** »[٤٩]. فما أطفأ العبد جمرة

---

(٤٧) أخرجه الترمذى (٢٨٦٣) جـ٥ ، (٢٨٦٤) جـ٥ من طريق البخارى وقال هذا حديث حسن صحيح غريب والبخارى فى التاريخ مقتصراً على آخره وأحمد فى مسنده (٤ / ١٣٠ / ٢٠٢) وأبو داود الطيالس (٥ / ١٥٩) وابن خزيمة فى صحيحه (١ / ٢٤٤) والألبانى فى صحيح الجامع (١٧٢٠) وكتاب (جامع الأحاديث القدسية) رقم (٩٣١) « لأبى عبد الرحمن عصام الصبابطى » .

(٤٨) أخرجه أحمد فى « مسنده » (٣ / ١٩) من حديث أبى سعيد الخدرى .

(٤٩) أخرجه أحمد فى « مسنده » (٤ / ٢٢٦) من طريق عروة بن محمد عن أبيه عن جده .

الغضب والشهوة بمثل الوضوء والصلاة . فإنها نار ، والوضوء يطفئها ، والصلاة إذا وقعت بخشوعها والإقبال فيها على الله أذهبت أثر ذلك كله . وهذا أمر تجربته تغنى عن إقامة الدليل عليه .

الحرز العاشر : إمساك فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس . فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة .

فإن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان ، ووقوع صورة المنظور إليه فى القلب والاشتغال به ، والفكر فى الظفر به . فمبدأ الفتنة من فضول النظر ، كما فى المسند عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال : « **النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن غض بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها فى قلبه إلى يوم يلقاه** »(٥٠) أو كما قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم . فالحوادث العظام إنما كلها من فضول النظر ، فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة ، كما قال الشاعر :

كل الحوادث مبدأها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فتكت فى قلب صاحبها ... فتكَ السهام بلا قوس ولا وتر

وقال الآخر :

وكنتَ متى أرسلت طرفك رائدا ... لقلبك يوماً أتعبتْك المناظـر
رأيت الذى لا كله أنت قادر ... عليه ، ولا عن بعضه أنت صابر

وقال المتنبى :

وأنا الذى جلب المنية طرفُه ... فَمَنِ المُطَالبُ ، والقتيل القاتل ؟

ولى من أبيات :

يارامياً بسهام اللحظ مجتهداً ! ... أنت القتيل بما ترمى ، فلا تُصبِ

---

(٥٠) أورده الهيثمى فى « مجمع الزوائد » وقال : رواه الطبرانى وفيه عبد الله بن إسحق وهو ضعيف والحاكم فى المستدرك (جـ٤ / ٣١٣) من حديث حذيفة (انظر جامع الأحاديث القدسية)

وباعثَ الطرف ! يرتاد الشفاء له ،   تَوَقّه ، إنه يرتد بالعطب
ترجو الشفاءَ بأحداق بها مرضٌ   فهل سمعتَ ببُرء جاء من عَطب ؟
ومُفنياً نفَسه فى إثر أقبحهم   وصفاً لِلَطْخ جمال فيه مستلِب
واهبا عمرَه فى مثل ذا سفهاً !   لو كنت تعرف قدر العمر لم تَهَب
وبائعاً طيب عيش ماله خَطر !   بطَيف عيش من الآلام منتَهب
غُبنتَ والله غُبناً فاحشاً فلو اسْـ   ـترجعت ذا العقدِ لم تُغبن ولم تَخب
وواردأ صفو عيش كله كَدر !   أمامك الوَرد صفواً ليس بالكذب
وحاطبَ الليل فى الظلمات منتصبا   لكل داهية تُدنى من العطب
شاب الصِّبا والتصابى بعدُ لم يشب   وضاع وقتك بين اللهو واللعب
وشمس عمرك قد حان الغروب بها   والفىء فى الأفق الشرقى لم يغب
وفاز بالوصل من فاز وانقشعت   عن أفقه ظلمات الليل والسحُب
كم ذا التخلفُ والدنيا قد ارتحلت   ورُسل ربك قد وافتك فى الطلب
مافى الديار وقد سارت ركائب من   تهواه للصب من سكنى ولا أرب
فافرِش الخد ذياك التراب ، وقل   ماقاله صاحب الأشواق فى الحقب
«ماربع مَيَّةَ محفوفاً يطوف به   غيلان أشهى له من رَبعِك الخرِب»
ولا الخدود وإن أدْمين من ضَرج   أشهىْ إلى ناظرى من خدك الترب
منازلا كان يهواها ويألفها   أيام كان منال الوصل عن كثب
فكلما جُلِّيت تلك الربوع له   يهوى إليها هوىَّ الماء فى صبب
أحيا له الشوق تذكار العهود بها   فلو دعا القلب للسلوان لم يجب
هذا وكم منزل فى الأرض يألفه   وماله فى سواها الدهر من رغب
مافى الخيام أخو وجد يريحك إن   بثثته بعض شأن الحب ، فاغترب
وأسر فى غمرات الليل مهتدياً   بنفحة الطيب لا بالمنار والحطب
وعادِ كل أخى جُبنٍ ومَعْجَزةٍ   وحارب النفس لا تلقيك فى الحَرب
وخذ لنفسك نورا تستضىء به   يوم اقتسام الورى الأنوار بالرُّتَب
فالجسر ذو ظلمات ليس يقطعه   إلا بنور ينجى العبد فى الكُرَب

والمقصود : أن فضول النظر أصل البلاء

وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد أبوابا من الشر ، كلها مداخل للشيطان . فإمساك فضول الكلام يسد عنك تلك الأبواب كلها ، وكم من حرب جرتها كلمة واحدة . وقد قال النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم لمعاذ : « **وهل يَكُبُّ الناس على مناخرهم فى النار إلا حصائد ألسنتهم** »(٥١) . وفى الترمذى أن رجلا من الأنصار توفى ، فقال بعض الصحابة : طوبى له . فقال النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « **فما يدريك ؟ فلعله تكلم بمالا يعنيه ، أو بخل بما لا ينقصه** »(٥٢)

وأكثر المعاصى إنما تولدها من فضول الكلام والنظر ، وهما أوسع مداخل الشيطان . فإن جارحتيهما لا يملان ولا يسأمان ، بخلاف شهوة البطن ، فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطعام ، وأما العين واللسان فلو تركا لم يفترا من النظر والكلام ، فجنايتهما متسعة الأطراف ، كثيرة الشعب ، عظيمة الآفات . وكان السلف يحذرون من فضول النظر ، كما يحذرون من فضول الكلام ، وكانوا يقولون : « ماشيء أحوج إلى طول السجن من اللسان »

وأما فضول الطعام فهو داع إلى أنواع كثيرة من الشر ، فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصى ، ويثقلها عن الطاعات ، وحسبك بهذين شراً . فكم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام ، وكم من طاعة حال دونها ؟ فمن وقي شر بطنه فقد وقى شراً عظيما ، والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من

---

(٥١) أخرجه الإمام أحمد فى « مسنده » (٥ / ٢٣١ - ٢٣٦ - ٢٣٧) والترمذى (٢٦١٩) وابن ماجه رقم (٣٩٧٣) جـ٢ وقال الهيثمى فى « مجمع الزوائد » (١٠ / ٣٠٠) رواه البزار وقال : إسناده حسن ومتنه غريب .

(٥٢) قال الحافظ العراقى فى تخريجه لإحياء علوم الدين جـ٣ / ١١٢ . أخرجه الترمذى من حديث أنس مختصر أو قال غريب ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت بلفظ المصنف بسندٍ ضعيفٍ .

الطعام ، ولهذا جاء فى بعض الآثار « ضيقوا مجارى الشيطان بالصوم »[٥٣] وقال النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم « **ماملأ آدمى وعاء شراً من بطن** »[٥٤] ولو لم يكن فى الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعوا إلى الغفلة عن ذكر الله عز وجل ، وإذا غفل القلب عن الذكر ساعة واحدة جثم عليه الشيطان ، ووعده ومناه وشهاه وهام به فى كل واد فإن النفس إذا شبعت تحركت وجالت وطافت على أبواب الشهوات ، وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت .

وأما فضول المخالطة : فهى الداء العضال الجالب لكل شر ، وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة ، ولكم زرعت من عداوة ، وكم غرست فى القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات ، وهى فى القلوب لاتزول ، ففى فضول المخالطة خسارة الدنيا والآخرة ، وإنما ينبغى للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة ويجعل الناس فيها أربعة أقسام ، متى خلط أحد الأقسام بالآخر و لم يميز بينها دخل عليه الشر .

أحدها : من مخالطته كالغذاء لايستغنى عنه فى اليوم والليلة ، فإذا أخذ حاجة منه ترك الخلطة ، ثم إذا احتاج إليه خالطه هكذا على الدوام . وهذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر ، وهم العلماء بالله وأمره ، ومكايد عدوه ، وأمراض القلوب وأدويتها ، الناصحون لله ولكتابه ولرسول ولخلقه . فهذا الضرب فى مخالطتهم الربح كل الربح .

القسم الثانى : من مخالطته كالدواء يحتاج إليه عند المرض ، فما دمت صحيحا فلا حاجة لك فى خلطته . وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم فى مصلحة المعاش ،

---

(٥٣) الحديث فى البخارى ومسلم « **إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم** » أخرجه الألبانى فى كتاب الجامع الصحيح برقم (١٦٥٤) ثم قال أما الزيادة « **فضيقوا مجاريه بالجوع** » فلا أصل لها خلافاً لمن وهم .

(٥٤) أخرجه الترمذى (٢٣٨١) وأحمد فى « مسنده » (٤ / ١٣٢) وابن ماجه (٣٣٤٩) جـ٢ .

وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها . فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم من .

القسم الثالث : وهم من مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه . فمنهم من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن ، وهو من لا تربح عليه فى دين ولا دنيا ، ومع ذلك فلا بد من أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما . فهذا إذا تمكنت منك مخالطته واتصلت فهى مرض الموت المخوف . ومنهم من مخالطته كوجع الضرس يشتد ضربه عليك ، فإذا فارقك سكن الألم . ومنهم من مخالطته حمى الروح . وهو الثقيل البغيض العقل ، الذى لا يحسن أن يتكلم فيفيدك ، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك ، ولا يعرف نفسه فيضعها فى منزلتها ، بل إن تكلم فكلامه كالعصى تنزل على قلوب السامعين . مع إعجابه بكلامه وفرحه به . فهو يحدث (الإحداث : إخراج الريح من الدبر) من فيه كلما تحدث ، ويظن أنه مسك يطيب به المجلس . وإن سكت فأثقل من نصف الرجال العظيمة التى لا يطاق الرحى حملها ولا جرها على الأرض .

ويذكر عن الشافعى رحمه الله أنه قال : ما جلس إلى جانبى ثقيل إلا وجدت الجانب الذى هو فيه أنزل من الجانب الآخر . ورأيت يوما عند شيخنا (هو ابن تيمية) قدس الله روحه رجلاً من هذا الضَّرب ، والشيخ يحمله وقد ضعفت القوى عن حمله ، فالتفت إلىّ وقال : مجالسة الثقيل حمى الربع (التى تنوب كل رابع يوم) ثم قال : لكن قد أدمنت أرواحنا على الحمى ، فصارت لها عادة أو كما قال .

وبالجملة فمخالطة كل مخالف حمى للروح ، فعرضية ولازمة . ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلى بواحد من هذا الضرب ، وليس له بد من معاشرته ومخالطته فليعاشره بالمعروف ، حتى يجعل الله له من أمره فرجاً ومخرجاً .

القسم الرابع : من مخالطته الهلك (لغة فى الهلاك) كله ومخالطته بمنزلة أكل

السم ، فإن اتفق لآكله ترياق ، وإلا فأحسن الله إليه العزاء ، وما أكثر هذا الضرب فى الناس ، لا كثرهم الله ! وهم أهل البدع والضلالة ، الصادون عن سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، الداعون إلى خلافها ، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عِوَجا ، فيجعلون البدعة سُنة ، والسنَّة بدعة ، والمعروف منكراً ، والمنكر معروفاً .

إن جردت التوحيد بينهم قالوا : تنقصت جناب الأولياء والصالحين وإن جردت المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قالوا : أهدرت الأئمة المتبوعين وإن وصفت الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير غلوّ ولا تقصير قالوا : أنت من المشبهين ، وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ، ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر قالوا : أنت من المفتنين ، وإن اتبعت السنة وتركت ما خالفها قالوا : أنت من أهل البدع المضلين ، وإن انقطعت إلى الله تعالى وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا قالوا : أنت من الملبسين ، وإن تركت ما أنت عليه واتبعت أهواءهم فأنت عند الله من الخاسرين ، وعندهم من المنافقين .

فالحزم كل الحزم التماس مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم ، وأن لا تشتغل بأعتابهم ولا باستعتابهم ، ولا تبالى بذمهم ولا بغضهم : فإنه عين كمالك ، كما قال :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى فاضل

وقال آخر :

وقد زادنى حبا لنفسى أننى بغيض إلى كل امرىء غير طائل

فمن كان بواب قلبه وحارسه من هذه المداخل الأربعة التى هى أصلا بلاء العالم هى : فضول النظر والكلام والطعام والمخالطة واستعمل ما ذكرناه من الأسباب التسعة التى تحرزه من الشيطان ، فقد أخذ بنصيبه من التوفيق ، وسد على نفسه أبواب جهنم ، وفتح عليها أبواب الرحمة ، وانغمر ظاهره وباطنه . ويوشك

أن يحمد عند الممات عاقبة هذا الدواء ، فعند الممات يحمد القوم التقى ، وفى الصباح يحمد القوم الشرى . والله الموفق لا رب غيره ، ولا إله سواه .

تم الفراغ – والحمد الله وحده – من طبع هذا التفسير القيم
فى المحرم سنة١٣٩٤ هـ (الموافق فبراير ١٩٧٤ م)

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

(أهم المصادر والمراجع)

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

٣ ـ تفسير الطبرى .

٤ ـ تفسير القرطبى .

٥ ـ تفسير ابن كثير .

٦ ـ تفسير فتح القدير للشوكانى .

٧ ـ صحيح البخارى (فتح البارى) ط الريان .

٨ ـ صحيح مسلم (شرح النووى) .

٩ ـ مسند الإمام أحمد .

١٠ـ سنن الترمذى .

١١ـ سنن أبى داود .

١٢ـ سنن الدارمى .

١٣ـ سنن ابن ماجه .

١٤ـ سنن النسائى .

١٥ـ كتاب السنة لابن أبى عاصم .

١٦ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد .

١٧ـ الموطأ للإمام مالك .

١٨ـ ضعيف الجامع « للألبانى » .

١٩ـ صحيح الجامع « للألبانى » .

٢٠ـ السلسلة الصحيحة « للألبانى » .

٢١ـ السلسلة الضعيفة « للألبانى » .

٢٢ـ صحيح ابن خزيمة .

٢٣ــ جامع الأحاديث القدسية « لعصام الصبابطى » .
٢٤ــ السيرة النبوية (لابن كثير) .
٢٥ــ البداية والنهاية (لابن كثير) .
٢٦ــ مفتاح دار السعادة (لابن القيم) .
٢٧ــ الجواب الكافى (لابن القيم) .
٢٨ــ رياض الصالحين (للنووى) .

(فهارس القرآن في سورة الفلق)

(فهارس القرآن في سورة الناس)

فهرست أحاديث سورة الفلق

فهرست أحاديث تفسير سورة الناس

فهرست

كتاب

تفسير المعوذتين

صفحة

سورة الناس

رقم الإيداع ٨٩٠٢ لسنة ١٩٨٩

أمون للطباعة والتجليد
٣٥٤٤٥١٧ - ٣٥٤٤٢٥٦